دورية تصدر كل شهرين

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية

السنة الثالثة عشرة / (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٧
www.hiragate.com

الرحمة

على قلب ينبض بالرحمة تُقبِل الأرواح،
ورياح القرّ تهبّ نسيما،
ويغدو الغيرُ خِلاً حميما
ما تقاسمت النفوس الحزن والأفراح.

***

٢ فرسان الوجد في هذا الزمان-٢
فتح الله كولن

٦ البصمة
د. محمد السقا عيد

٤٧ خيرية الأمة
د. محمد إقبال عروي

بصمة الوجد

إن أي مشروع مهما كان عظيمًا لا يمكنه أن يرى النور ما لم يجد رجالاً يؤمنون به إلى حد العشق، يحملونه على عواتقهم بصدق، ويسيرون به نحو المستقبل. الأستاذ فتح الله كولن في الحلقة الثانية من مقال "رجال الوجد في هذا الزمان" يستكمل رسم ملامح هؤلاء الرجال الذين أناط بهم مهمة بناء ذات الأمة، وحَثَّهم على الإسهام في الحضارة الراهنة من خلال طروحاتهم ومشاريعهم الإنسانية. بهذه الروح التي تستمدها حراء من مقالها الرئيس في هذا العدد، تدخل حراء عامها الثالث عشر مصممة على مواصلة مسيرتها الحضارية مهما اشتدت الظروف وادلهمت الأجواء.

قد يكون لدى بعضنا معلومات عن بصمة الأصابع، لكن قلّ من يعرف بصمة العين والأذن والصوت والرائحة وبصمات أخرى متناثرة في جسم الإنسان تؤكد أنه مخلوق متفرد في الكون بحق، وتثير الإعجاب والانبهار أمام عظمة الخالق سبحانه. من هنا فإن مقال "البصمة" للدكتور محمد السقا عيد يتألق بهذه المعاني في هذا العدد.

الاختلاف والتعدد ظاهرة إنسانية نراها ونعيشها حيثما كنا، فكيف اقتربت النصوص الإسلامية من هذا الموضوع، وهل هناك تناقض بينها وبين مقاربات الدولة الحديثة؟ الدكتور خالد المزيني يعالج تفاصيل هذا المفهوم بعمق في مقاله الموسوم "التعددية الفكرية والدولة الحديثة".

أما الدكتور بركات محمد مراد فيدعو في مقاله "الذات والآخر" النخبَ العربية والإسلامية إلى نقد الذات بشجاعة حتى تكتشف مواطن القوة والخلل فيها، وتدرس الآخر دراسة معمقة تبحث من خلالها عن طرق التواصل معه والاستفادة منه بدلاً من الانكماش على الذات.

وفي مقالها "الأسس الفاعلة في الانبعاث الحضاري" تسلط الدكتورة القديرة سعاد الناصر الضوء على فكر الأستاذ فتح الله كولن، تبحث عن مكامن القوة فيه ومحركات الفعل الحضاري لديه. المرأة طاقة جبارة لا شك في ذلك، لكن هل استطاعت مجتمعاتنا الإسلامية أن تكتشف ذلك؟ الدكتور عبد الحميد الداودي يعالج هذا الموضوع في مقاله "نحو تفعيل دور المرأة".

أما الدكتور ناصر سنه في مقاله "الأخلاق الحيوية" فينبه إلى مخاطر التطور العلمي والتكنولوجي ما لم يضبط بقيم أخلاقية. ما فائدة الاختراعات العلمية إذا كانت ستقتل العمق الإنساني في الإنسان وتحوّله إلى آلة صماء أو حيوان مفترس؟

أما الدكتور العطري بن عزوز فيتحدث عن الصلة بين التدين والإبداع، فكلما تشبّع الإنسان بالدين حقيقة تمكّن من أن يبدع في الصناعة الفنية، فالفن ثمرة طبيعية للتدين الخالص، وليس العكس. والدكتور محمد إقبال عروي في مقاله "خيرية الأمة" يطرح أفكارًا هي من أنفس ما يمكن أن يقرأها قراء حراء في هذا الموضوع.

أما العلامة الدكتور علي جمعة في مقاله "منظومة الأخلاق ركن في النموذج المعرفي الإسلامي" فيؤكد على مكانة القيم الأخلاقية في بناء الإنسان وتنمية الحياة وإقامة العمران وتحقيق مقاصد الشارع من خلق الإنسان. إلى جانب مقالات علمية وفكرية ومقاطع أدبية أخرى تتكامل فيما بينها لتشكل وجبة معرفية متنوعة بين يدي القارئ الكريم. والله من وراء القصد. ■

المحتويات

فرسان الوجد في هذا الزمان–٢ / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
البصمة / د. محمد السقا عيد (علوم)	٦
التعددية الفكرية في الدولة الحديثة / د. خالد بن عبد الله المزيني (قضايا فكرية)	١٠
عالم الإشارة / عمر هاشم محمد (ثقافة وفن)	١٣
منزل زينب خاتون / حياة الدسوقي (تاريخ وحضارة)	١٦
الذات والآخر.. ودعوة إلى التواصل والمثاقفة / أ.د. بركات محمد مراد (قضايا فكرية)	١٨
أرواحُنا بلغت الحلقوم / حراء (ألوان وظلال)	٢١
الأسس الفاعلة في الانبعاث الحضاري / د. سعاد الناصر (قضايا فكرية)	٢٢
نحو تفعيل دور المرأة / د. عبد الحميد الداودي (تربية)	٢٨
الخارق المُخيف / حراء (ألوان وظلال)	٣١
الأخلاق الحيوية / د. ناصر أحمد سنه (علوم)	٣٢
الفن والعلم والتأصيل لحقيقة التدين / د. العطري بن عزوز (قضايا فكرية)	٣٥
مدارس كونية الآفاق / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٣٨
الطريق إلى المدينة / د. حسن الأمراني (شعر)	٤٠
من يوميات خلية / حنين خلدون السقاف (علوم)	٤١
واجبنا نحو القرآن المجيد / عبد العزيز الإدريسي (قضايا فكرية)	٤٣
منابع الحياة / حراء (ألوان وظلال)	٤٦
خيرية الأمة.. وعي شروط الاصطفاء مقدم على عاطفة الانتماء / د. محمد إقبال عروي (قضايا فكرية)	٤٧
الإبل في كتابات الرحالة / علي عفيفي غازي (تاريخ وحضارة)	٥٢
كيف غير الإنترنت طريقة تفكيرنا؟ / د. موبينا مفتيك (علوم)	٥٦
منظومة الأخلاق ركن في النموذج المعرفي الإسلامي / أ.د. علي جمعة (قضايا فكرية)	٥٨
عاقبة الليالي / د. جمال بن فضل الحوشبي (قصة)	٦١

فرسان الوجد
في هذا الزمان-٢

فرسان الوجد في هذا الزمان، هؤلاء الأخيار الذين يُمضُون حياتهم ملتزمين بمبدأ التكامل بين العقل والقلب، وصدق المخبر والمظهر، لم يستطع أحد حتى اليوم أن يصرفهم عن القيم والمبادئ التي آمنوا بها، أو يُقصِيهم عن السعي في فلك مرضاة الله تعالى، أو يُثنِيهم عن تتويج مشاعرهم السامية هذه بجهود جبارة لتعريف العوالم كلها بالخالق ﷻ. لقد استطاع هؤلاء الأطهار -بهذا الشعور من المسؤولية والوعي بالمهمة- أن يصمدوا في مواقعهم كالجبال الشامخة الأبيّة، ويتحدَّوا العواصف والأعاصير، ويقارعوا الثلوج والجليد، ويكتشفوا سر الإثمار في جميع الفصول، يغرسون أزهارًا، ويستنبتون ورودًا، ويَشْدُون بأنغام الورد مدى الحياة.

إنهم كالساعة تناغمًا حين يتحركون، ورمزًا للتوقّد والإبداع والسداد حين يتحدثون. لا اختلال في حركاتهم ولكن انسجام ورشاقة، ولا مرارة في حديثهم بل عذوبة وطرافة. قلوبهم صافية صفاء الملائكة، نقية نقاءها، ألسنتهم ترجمان صادق لما يختلج في أعماق وجدانهم. سلوكهم جمالاً وروعة يثير الإعجاب والغبطة لدى الناظرين، وكلامهم عمقًا ورقة يحرّك السواكن في القلوب ويُلهِب الحماسة في الأرواح. قلوبهم خفّاقة بحضور الحق ﷻ ليل نهار، وكلماتهم فياضة بعشق عميق لله، وحب للوجود، ومحبة للإنسان ورحمة وتسامح وصفح. مرضاة الحق تعالى هدفهم الأوحد الذي تعلقوا به، وقراءةُ الأشياء والأحداث قراءة صحيحة واستيعابها هيامٌ لا يمكنهم التخلي عنه، حبُّ الإنسان وفتح الصدر للناس كلِّ الناس الصبغةُ الحقيقية لطبيعتهم.

إنهم في اللحظة التي يصدح فيها سلوكُهم وسمتُهم المتّجِهُ إلى الله دومًا بعشق عميق ما بعده عمق، يُقبِلون على القلوب والطبائع التي غشيها الصدأ والعفن حتى غدت كالحجارة أو أشد قسوة، بمفاتيح المحبة المطلسمة الساحرة، يحنون عليها برفق حتى تصير ناعمة كالشمع، ثم يَلِجونها بلطف، يحاولون أن يوفّوا نعمة محبة الخالق لهم حقها. يألفون ويؤلفون، يُحِبُّون ويُحَبُّون، يصمدون كالجبال إزاء أشرس الهجمات وأشد الغارات، لا يهتزون ولا يرتبكون، بعزم نبويّ يَثبُتون في مواقعهم ولا يتزحزحون، ولدى قراءتهم لما يقع من حولهم بنور السماء ينظرون. إذا ضربتهم أشدُّ الأعاصير عنفًا لا يسقطون، وإذا دهمتهم أكثرُ الزلازل فتكًا لا يهتزون. يفتحون صدورهم للأمطار الهاطلة، ويُفسِحون شواطئ قلوبهم للأمواج القادمة، لا يحرمونها من جودهم حين تعود، حتى لو نثروا بين يديها حفنة من رمل.

هؤلاء الشجعان يعون تمامًا أنهم قد علّقوا قلوبهم بأعظم قضية في الوجود وهي إحراز مرضاة الله تعالى، لذلك عقدوا العزم لمواجهة جميع المخاطر والعقبات حتى يصلوا إلى تلك الغاية السامية. شِيمتُهم الخشوع والانمحاء، يحنون رؤوسهم كالشمعة تواضعًا، يتوقون إلى الاحتراق من أجل إنارة الدرب للسائرين، يقلّصون من حجمهم في وقار، لا تَفاخُرَ في سلوكهم ولا ادعاء، ولكن في الوقت نفسه، قد أعدوا عدتهم وشحذوا همتهم وتأهبوا -كصقور نشرت أجنحتها وتهيأت- للتنافس مع سكان الملإ الأعلى؛ لا يتوقفون عن الحركة، وحتى إن بدوا ساكنين فإن بواطنهم تموج بفاعلية وجدانية وحيوية فريدة تزيد عزيمتهم قوة وحماسهم اتقادًا. فإذا بهم كالبحار تزوّد أمواجُها الشواطئَ القريبة منها بالماء، وترسل للديار البعيدة عنها سحائب غيث تبعث فيها السعادة والهناء. يجودون بماء الحياة للرائح والغادي والقاصي والداني، ينفخون الروح -حيث مروا- في جثامين خامدة تتخبط في وديان البؤس والشقاء منذ سنين وسنين. بلسان الروح يتحدثون، في قلوب كل من يلقونه يبثّون حكايات تنبض بترانيم القلب وأنغام الحب. أبوابهم موصدة في وجه أي إشاعة أو غيبة تهدد نسيج المجتمع، وإزاء أي نقاش يثير فيه عداوة وبغضاء وحقدًا.. ذلك ديدن هؤلاء الأخيار في الليل والنهار والحل والترحال.

إن الشيء الذي تعلقت به أحلامُ هؤلاء الأخيار وآمالُهم أن يكونوا نافعين للناس، يحسون بآلام الإنسانية وأزماتها الروحية في أعماقهم، يفتحون صدورهم لكل من يطرق بابهم، يسمعون همومًا، يتقاسمون آلامًا، يرفعون أصواتهم بالبكاء والأنين، يبحثون عن قلوب مصدَّعة بالهمّ، ويضعون أيدهم بأيدي قلوب مكلومة مثلهم، يسرعون لكي يخففوا من آلام البائسين ويمسحوا دموع المكروبين. وقد يأتي حين من الدهر فتجدهم يقتحمون نيران الفتنة والفساد لإخمادها، ويغرسون وردًا حتى لو كانوا وسط الأشواك، ويصدحون بألحان الورد على الدوام.

فرسان الوجد، بلسان الروح يتحدثون، في قلوب كل من يلقونه يبثّون حكايات تنبض بترانيم القلب وأنغام الحب. أبوابهم موصدة في وجه أي إشاعة أو غيبة تهدد نسيج المجتمع، وإزاء أي نقاش يثير فيه عداوة وبغضاء وحقدًا.

hiragate.com

في بعض الأحيان تتحول ألوانهم الوردية تلك إلى حمرة قانية تحت وقع ألف معاناة ومعاناة -كالبراعم المنشقّة عن أكمامها- يكادون ينفلقون أحيانًا من شدة الكرب ووطأته فتستحيل نغماتهم إلى أنين؛ ولكن رغم كل ذلك، يضعون أيديهم على صدورهم متمتمين "فصبر جميل".. يواصلون السير نحو هدفهم تعلو البسماتُ وجوههم يوزّعونها على من حولهم، فتبتهج كل بقعة يمرون بها بلون بديع من الخضرة وكأنها روضة من رياض الجنة. من مدوا إليه يدهم عادت إليه الروح كأنه شرب من ماء الحياة. أيادي هممهم تبهر العيون كـ"اليد البيضاء"، جهودُهم تبطل سحر جميع السحرة، وتتهاوى أشد الأفكار فرعونية حيث مروا معلنة عن إفلاسها.

إنهم يمتلكون ثروة منبعها الإيمان، فلو قارنت بين ثروتهم وما يملكه قارون من كنوز وخزائن، لبدت خزائن قارون من سَقَط المتاع؛ بل لو شاؤوا لابتاعوا العوالم كلها بهذه الثروة الربانية والغنى الإلهي. إن كفّة الربح في ميزان أعمارهم طافحة على الدوام، وكفة الخسارة فارغة تثير حنق الشياطين وتفقدهم صوابهم.

يعلمون جيدًا أين يستثمرون رأسمال أعمارهم، يبرعون أيما براعة في تحويل الأشياء الفانية إلى حقائق خالدة. لا يبددون أوقاتهم هدرًا دون جدوى، وإذا نادى منادي الخدمة وداعي السعي والهمة لا يرضون لأنفسهم إلا أن يكونوا في طليعة الركب، بل لا يغتفرون لأنفسهم أبدًا إن اثّاقلوا وتأخروا عن قافلة البذل والعمل والجد. عالية همتهم، قوية إرادتهم، صلبة عزيمهم لا تضعف ولا تخور. الإيمان والفاعلية أهم مقوّمين ينظمان إيقاع قلوبهم وسلوكهم. لا يخافون أحدًا إلا الله، ولا يخشون أحدًا غيره، بل يقفون منتصبي القامة لا يركعون لأحد، وينطلقون مرفوعي الهامة -وبتواضع جم- إلى أرجاء العالم كلها ليوقدوا الأنوار في سمائها. مظهرهم مرآة للبساطة، وسلوكهم شاهد للقناعة والرضا. كالرياح بأفكارهم السماوية يهبّون، والبذورَ في كل مكان ينثرون، وكالغيث على جميع البقاع يهطلون، حياةً يصيرون في الأرض وحياةً يتدفقون.

وإذا ما ألَمّت بهم نوائبُ شتى، وساءت أعمالُهم، وبارت تجارتهم، وعصفت بآمال البعض أزمات متعاقبة، فإنّ ذلك لا يزعزع إرادتهم ولا يُضعِف من عزيمهم. يجددون العهد الذي قطعوه على أنفسهم مع الله باستمرار، وينفقون جميع أصناف منن الله عليهم في سبيل إقامة صروح أرواحهم، أي إحياء الشعائر. يحرصون على أن يكونوا حيثما كانت روح الدين ومعاني التدين الصحيح، وأن يولّوا وجوههم حيثما كان وجه الله ورضاه، يحثّون السير في الاتجاه الذي يحقق أوامره ومقاصده ﷻ دون توقف. وإذ يسعون إلى تحقيق هذا الغرض السامي، يبذلون عناية خاصة في إتقان شؤون الدنيا والنجاح في تدبير مصالحها. من يراهم ويطلع عليهم من هذا المنحى فقط، يحسب أنهم دنيويون لا شأن لهم بالآخرة؛ ومن يراهم في حالهم مع الله وبحثهم عن مرضاته، يندهش من توقهم وشوقهم وتوقّدهم، ويخال نفسه بين صفوف رجال من الرعيل الأول.

هؤلاء الأخيار يمقتون الخمول والقعود بلا معنى، ويكرهون إنفاق العمر عبثًا بلا جدوى. إنهم في حركة دائبة لا تعرف الفتور، يسعون إلى إعمار الدين والدنيا ليل نهار، فإن كانوا أرباب قلم يُسهِمون بكتابتهم، وإن لم يُجيدوا الكتابة فيُهدون من يجيدها قلمًا، ومهما يكن يحرصون على أن يبقوا ملازمين لقافلة الخدمة مُسهِمين في جهودها بأي وسيلة. فهم محبون للعلم دومًا، موقّرون للعلماء، يجالسون أصحاب القلوب اليقظة والعقول المستنيرة، ويتنفسون بذكر المحبوب -سبحانه- شهيقًا وزفيرًا مدى الحياة.

فلو لم يبق إنسان حقيقي على سطح الأرض قط، وزحفت غيوم سوداء من جميع الأطراف وحجبت الآفاق، وانهزمت الشوارع أمام سيول من الأوحال حتى غمرتها تمامًا، واحتلت الأشواك كل مكان، وغطت أشجار الزقوم على حدائق الورد بظلالها السوداء؛ وامتلأت الساحات والميادين بالغربان، وطغى نعيقها على تغريد البلابل، وتداعت الزنابير على أقداح العسل؛ وسادت كآبة الغابات المرعبة على شوارعنا، ولم يبق للعلم حرمة أو توقير في القلوب، وطُرِدت المعرفة من كل باب شر طردة، وصارت المروءة ضحية للغدر والجحود والخذلان؛ وانهارت الصداقات وانقلب الأصدقاء أعداء.. أجل، حتى لو نزلت هذه الكوارث

hiragate.com

والملمات كافة، فإن هؤلاء الرجال يصمدون في مواقعهم دون أدنى اهتزاز يهتفون بهذه الكلمات: "قد ينهار كل شيء، ولكن لا ضير ما دمت أنا قائمًا، سأعيد كل شيء أفضل مما كان.. قد تتحول كل بقعة إلى صحراء قاحلة، لا ضير ما دمت أملك نبعًا من الدموع.. لقد منحني الله رِجلين أمشي بهما، وقبضتين أكدح بهما، عندي رأسمال لا مثيل له اسمه الإيمان، وحصن حصين لا تخرقه الأعادي عنوانه القلب، وهناك فرص تكفي لإعمار العوالم تنتظر من يستثمرها، أستطيع أن أحوّل العالم إلى جنان خضراء إذا أحسنتُ الاستعانةَ بالله واستغلالَ هذه الفرص وتلك الإمكانات. أوليست كل بذرة أرمي بها في التربة تنبت سنابل عدة؟ فلِمَ الخوف والحزن والقلق من المستقبل إذن؟ أوليس الله قد وعد بمضاعفة الواحد إلى آلاف هناك؟".

أجل، يهتفون بهذه الكلمات، ويواصلون السير نحو أهدافهم وإن كانت الدروب من حولهم منخورة مكسّرة، والجسور منهارة مهدّمة.

كالأنهار الهادرة يحملون حياة إلى كل أرض يمرون بها، يطفئون حرقةَ كل أحد ولهيبَ كل مكان.. وكالنار المشتعلة، تدفئ الآخرين وتحميهم من أذى القر وإن أضعفها وبرودة الثلج وإن أكل من جسمها.. وكالشموع المتقدة، تحترق وتذوب لتهدي آلاف العيون نورًا وضياء.

"لليلُيون" كامنون في زواياهم فاتحون صدورهم يرصدون نسائم الرحمة حينًا، ويرفعون نداءاتهم آهاتٍ وأنّاتٍ في الساعات الشريفة حينًا آخر، ويطلقون أشرعتهم من مراسي المعاناة يرجون نيل عناية استثنائية من المنّان سبحانه. الدرب الذي يسيرون عليه هو ذاته المسار الذي سلكه "أخلاء الحق" تعالى منذ القدم، فمن سار في هذا الدرب لم يخذله ولم يغدر به أو يضيّعه، بل من سار في هذا الدرب وصل لا محالة.

تفيض قلوب هؤلاء إيمانًا وتخفق أملاً وتتقد حماسة. إنهم قمة في السخاء يبذلون كل ما يملكونه في سبيل الحق ﷻ؛ يعلمون يقينًا أن ما يبذلونه هنا واحدًا يعود إليهم هناك عشراتٍ، لذلك يُمضُون حياتهم في مهرجانات من العطاء والبذل بسخاء. لقد آمنوا أنه لا مرتبة أعظم من حماية الدين وحفظه وتمثيله في كافة

لا يفكر فرسان الوجد براحتهم الذاتية أبدًا، يسعون لنيل مرضاة الله دومًا، يعملون لغرس "الفضيلة" في الأفراد، يكدّون لزرع القيم الإنسانية في المجتمعات، ويفتحون صدورهم للبشرية كافة تأسّيا بأخلاق الأنبياء عليهم السلام، يعيشون من أجل الآخرين مدى الحياة.

أرجاء المعمورة بصورة مشرقة تثير الإعجاب والغبطة في القلوب. يعتبرون الوصول إلى تلك المرتبة السامية غايتهم الوحيدة في الحياة، ويعلقون حكمة وجودهم في هذه الدنيا بالسعي لتحقيق تلك الغاية، وإلا فلا معنى للحياة في نظرهم. بهذه المشاعر يلتقطون أنفاسهم دومًا، ويجتمعون ليصوغوا منها مشاريع على الأرض، ويضفون على لقاءاتهم عمقًا آخر من خلال ربطها بمرضاة الحق ﷻ. وإزاء هذا المشهد المشرق يهلل لهم سكان الملإ الأعلى بأناشيد التهنئة والتبريك، ويغمرونهم بدعوات السداد والقبول والتوفيق.

لا يفكر هؤلاء الأبرار براحتهم الذاتية أبدًا، يسعون لنيل مرضاة الله دومًا، يعملون لغرس "الفضيلة" في الأفراد، يكدّون لزرع القيم الإنسانية في المجتمعات، ويفتحون صدورهم للبشرية كافة تأسِّيا بأخلاق الأنبياء عليهم السلام، يعيشون من أجل الآخرين مدى الحياة. ولقاء صدقهم هذا وتفانيهم، يجود المولى ﷻ على هؤلاء "المحتسِبين" فرسانِ القلب بمفاجآت شتى من التوفيق والنجاح في دار الدنيا، ويمنحهم أرياشًا من أجنحة الملائكة يوم الحشر -يوم لا تنفع فيه الأيدي ولا الأرجل- يغمرهم بظلال الوصال الندية، ينزلهم في منازل الربانيين، ويكرمهم إكرام ضيوفه المتميزين، ثم يتوّج تلك المنح والعطايا كلها برضوان منه سبحانه. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٢٨٤ (سبتمبر ٢٠٠٢)، أصل عنوان المقال باللغة التركية: (Günümüzün Karasevdalıları)، الجزء الثامن من سلسلة "الجيل والعصر". الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

البصمة

البصمة هي الخاتم الإلهي الذي يتميز به كل إنسان عن غيره، إذ لكل إنسان بصمته الخاصة به؛ في صوته، ورائحته، وعينه، وأذنه، ويده، وقدمه، وشفته، ودمه، وشعره، وغيرها. ولكن كيف تتشكل هذه البصمات؟ كيف تتنوع الوجوه والأجسام؟ وكيف تتباين الألوان والصفات؟

١-بصمة الإبهام

بصمة الإبهام هي خطوط بارزة في بشرة الجلد تجاورها منخفضات، وتعلو الخطوط البارزة فتحات للمسام العرقية، تتمادى هذه الخطوط وتتلوى وتتفرع منها تغصنات وفروع، لتأخذ في النهاية -وفي كل شخص- شكلاً مميزًا. وقد ثبت أنه لا يمكن للبصمة أن تتطابق وتتماثل في شخصين في العالم حتى التوائم المتماثلة التي أصلها في بويضة واحدة. وهذه الخطوط تترك أثرها على كل جسم تلمسه، وعلى الأسطح الملساء بشكل خاص.

تتكون بصمة الإبهام لدى الجنين في الأسبوع الثالث عشر (الشهر الرابع) وتبقى إلى أن يموت الإنسان، وإذا حفظت الجثة بالتحنيط أو في الأماكن الثلجية، تبقى البصمة كما هي آلاف السنين دون تغير في شكلها، وحتى إذا ما أزيلت جلدة الأصابع لسبب ما، فإن الصفات نفسها تظهر في الجلد الجديد. كما أن بصمة الرجل تختلف عن بصمة المرأة، ففي الرجل يكون قطر الخطوط أكبر منه

عنـد المـرأة، بينما تتميز بصمة المرأة بالدقة وعدم وجود تشوهات تقاطعية.

ومـن الذيـن اهتمـوا بدراسـة البصمـات، الباحـث الألماني (ج. س. أ. مايـو) الـذي أعلـن بعـد ذلـك -في عـام ١٨٥٦- أن الخطـوط البارزة في بنان الإنسـان تبقى ثابتـة لا تتغيـر ولا تتبـدل منذ ولادته وحتـى وفاته. ودلل علـى قولـه هذا بتجربة عملية؛ إذ أخـذ طبعة بنانه الأيمن ثـم عـاد بعد مضي أربعيـن عامًا وأخذ طبعـة نفس البنان ثانيـة، فوجـد أنـه لا يزال كما هو لم يطرأ عليه شـيء من التعديل أو التغيير.

بصمـة الإبهـام واسـتخدامها في الجريمـة: لقـد قـام العلمـاء بتصنيـف البصمـات، بمـا فيهـا مـن منحنيـات وخطـوط وثنيـات ومنخفضات ومرتفعـات، إلى أصناف عديـدة، وجمعوهـا تحت أنواع رئيسـة تتفـرع عنها أنواع فرعية، وذلك لسهولة تتبعها. وحين تُعرض عليهم بصمة ما، فإنهم بذلك يستطيعون أن يرجعوها إلى ما لديهم من أنواع، وبذلك يعرفون صاحبها بسهولة، فإن كان مشتبهًا فـي جريمـة ما، كانـت دليلاً قويًـا عليه لا يمكـن إنكاره، فهو صورته الشخصية وجسده الحي في مكان الجريمة.

وقـد اختُلـف في عـدد العلامات اللازمـة التي يجب توافرها للمقارنة بين البرمجة المطبوعة الحقيقية من بلد إلـى آخـر، إلى أن جاء مؤتمـر ١٩٦٧ الدولي في باريس في نوفمبر، حيث تم الاتفاق على توحيد عدد العلامات في مختلف دول العالم باثنتي عشرة علامة مميزة، حتى لا يتـاح للهاربيـن الإفـلات بسـبب الاختـلاف العـددي لأخذ البصمة من دولة لأخرى.

وجاء في كتاب "الطب الشرعي" للأستاذ زياد درويش: "ولكي نقرر أن البصمتين تعودان لشخص واحد، يجب أن تتفقـا في الشـكل (أقـواس، منحدرات) وفي شـكل الزاوية والمركـز، وفـي السـعة، وفـي وجـود أي آثـار لجـروح أو ندبـات، وفي الصفـات الفرعية للخطـوط المكونة للبصمة من حيث بداية هذه الخطوط وانتهاؤها وانحرافها وتفرعها أو اندغامها في خط آخر، أو تكون جزءًا في طريق الخط، ويكتفـى غالبًـا بوجـود اثنتي عشـرة نقطة اتفـاق للقول بأن البصمتيـن متماثلتـان وإن كان الحصول على عدد أكبر من نقاط الاتفاق ممكنًا في أكثر الأحيان".

أكد الباحثون أن بصمة الإبهام تبقى آلاف السنين دون أيّ تغير في الشكل، حتى إذا أزيلت جلدة الأصابع فإن الصفات نفسها تظهر في الجلد الجديد.

وقـد قـدّر "غالتـون" أن هنـاك أقـل من فرصـة واحدة مـن ٦٤ مليـارًا لوجـود بصمـة واحـدة مطابقـة للأخرى، وهـذا الرقـم بالطبـع أضعاف عدد سـكان الكرة الأرضية فـي يومنـا هـذا. وقـد جـاء فـي الموسـوعة البريطانيـة أن البصمـات تحمل معنى العصمة -عن الخطأ- في تحديد هويـة الشـخص، لأن ترتيـب الأثـلام أو الحـزوز في كل إصبـع عند كل إنسان، فريدة ليس لها مثيل ولا تتغير مـع النمو وتقدم السن.

٢-بصمة الجينات

البصمـة الجينيـة لا يمكـن محوهـا ولا يمكـن رؤيتها إلا بعـد اسـتخدام وسـائل غايـة فـي التعقيـد. وهـي بصمـة تعكس -بشـكل ما- شـخصية صاحبها، وتحدده وتميزه عن سـائر البشـر. وعند مقارنة ترتيب المناطق المذكورة بسلاسـل الحمض النووي المأخوذ من الأب ومن الأم، فإنـه يمكـن ببسـاطة تحديـد المناطـق القادمـة مـن الأب والمناطـق القادمـة مـن الأم، وبالتالـي يمكـن الجـزم بأن الحمـض النـووي لـلأب والحمـض النـووي لـلأم رغـم الاختـلاف البيـن بيـن تسلسـل المناطـق المصبوغة على سلاسل الأحماض الثلاثة (الأب والأم والابن).

إن دراسـة "البصمات الجينية" فتحت مجالات عديدة للبحـث مـا زال معظمهـا فـي أول الطريق، فهنـاك علاقتها بالأمراض الموروثة والمكتسبة، وعلاقاتها بالمناعة وقدرة الجسـم علـى مقاومة مختلـف التحديات، وهنـاك علاقتها بشخصية الإنسان وقدراته العقلية والجسدية، واستعداداته النفسـية وغير ذلك مما يصعب حصره. وكلما بدأ البحث

hiragate.com

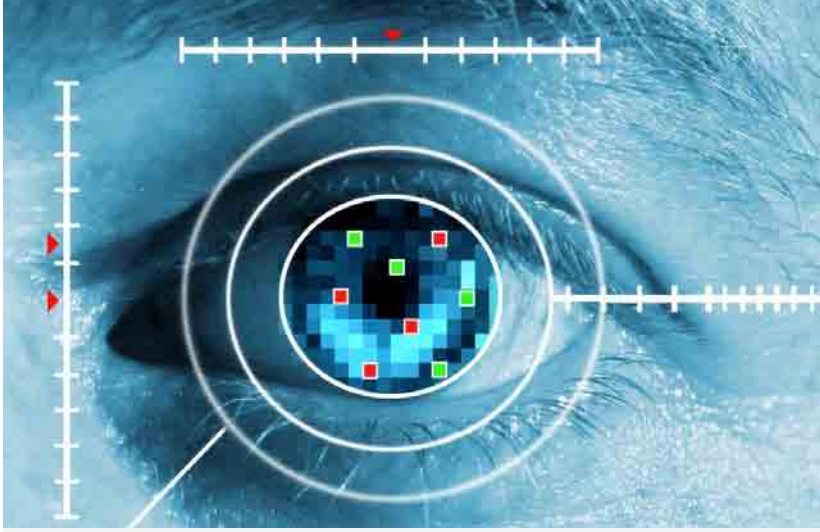

إن بصمة العين هي أكثر دقة من بصمة أصابع اليد، لأن لكل عين خصائصها، فلا تتشابه مع غيرها ولو كانت لنفس الشخص.

في مجال، بدت للباحثين مجالات أخرى كثيرة.

٣–بصمة العين

إن بصمة العين التي اكتشفها الأطباء منذ عدة سنوات، وتستخدمها الولايات المتحدة وأوروبا حاليًا في المجالات العسكرية، هي أكثر دقة من بصمة أصابع اليد؛ لأن لكل عين خصائصها، فلا تتشابه مع غيرها ولو كانت لنفس الشخص.

وبصمة العين التي يمكن رؤيتها مكبَّرة ٣٠٠ مرة بالجهاز الطبي يحددها أكثر من ٥٠ عامل، تجعل للعين الواحدة بصمة أمامية وأخرى خلفية، وباللجوء إليهما معًا يستحيل التزوير. وتنقسم بصمة العين إلى:

أ– بصمة الشبكية: هي الطبقة العصبية الحساسة للعين، وتكوِّن الجزء الداخلي لجدار العين. ويرى الناظر والمدقق لمسار الأوعية الدموية بالشبكية، أنها تختلف من شخص لآخر في شكلها ومكانها وفي تفرعاتها وكذلك تفرعاتها الثانوية، وليس ذلك فحسب بل تختلف أيضًا في نفس الشخص. فمسار الأوعية الدموية للشبكية في العين اليمنى تختلف عن العين اليسرى، هذا في العين الطبيعية. ناهيك عن أن كل عين تختلف عن الأخرى من حيث حجمها وقوة إبصارها، وهذا أيضًا يوسع دائرة الاختلاف بين العينين؛ فهذه عين حجمها صغير مصابة بطول نظر، وتلك عين حجمها كبير مصابة بقصر نظر.

ب– بصمة القزحية: لقد اجتذبت العيون عالم الحاسوب، فـ"جون دوجمان" من جامعة كمبردج البريطانية، استجاب لسحرها ولكن بطريقته الخاصة، مستخدمًا آلة ساحرة أيضًا هي الحاسوب، لكشف أسرار العيون.

وقد اعتمد "دوجمان" على حقيقة تشريحية تقول إن القزحية، الجزء الملون في العين والذي يتحكم في كمية الضوء النافذة من خلال البؤبؤ أو إنسان العين، تتركب من نسيجين عضليين وتجمعات من ألياف مرنة، وإن هذه الألياف تتخذ هيئتها النهائية في المرحلة الجينية، ولا تتبدل بعد الميلاد.

استخدم "دوجمان" آلة تصوير تعمل بالأشعة تحت الحمراء، صور بها توزيع هذه الألياف العضلية، ثم عالج الصور المتحصل عليها ببرنامج الحاسوب، وحول الصور بيانات رقمية (وهذه الآلة تختلف عن الجهاز الذي يستخدمه أطباء العيون في الكشف على العين). كما أجرى "دوجمان" ٣٠ مليون عملية مقارنة بين صفات قزحيات العيون التي صورها مترجمة إلى بيانات رقمية، فلم يعثر على قزحتين متطابقتين.

الأكثر من ذلك، أن عدم التطابق ينسحب على العينين اليمنى واليسرى لنفس الشخص، والأكثر إثارة أن نظام توزيع الألياف في القزحية يختلف بين التوائم، وهذا يعني أن طريقة "دوجمان" توفر لنا وسيلة أكثر دقة من الحمض الوراثي (DNA)، ناهيك عن بصمات الأصابع في التحقق من شخصيات الأفراد.

٤–بصمة العرق

لكل إنسان بصمة لرائحته المميزة التي يتفرد بها وحده دون سائر البشر. واليوم أصبح يستخدم جهاز قياس الرائحة وتسجيل مميزاتها بأشكال متباينة ومخططات علمية لكل شخص، وهي تعتمد على أن لكل شخص رائحته الخاصة التي لا تتفق مع غيره، والتي تبقى مكانه حتى بعد مغادرته لهذا المكان، وعليها قامت فكرة الكلاب البوليسية المدربة، إلى درجة أن الكلب المدرب يستطيع أن يميز بين رائحة توأمين متطابقين تمامًا.

يقول البروفيسور "وولتر نيوهاوس" من جامعة إيرلانجن بألمانيا: "إن كل خطوةٍ قدَم عاريةٍ لإنسان بالغ، تترك على الأرض كمية من العرَق تقدَّر بحوالي أربعة أجزاء من بليون جزء من الجرام، ورغم ضآلتها وعجز أيّة وسيلة متاحة لاكتشافها، إلا أنها كافية لأنف الكلب المدرب لتتبع مسارها".

hiragate.com

٥-بصمة الصوت

يقول الخبراء إن صوت الإنسان أكثر تعقيدًا مما نتصور. وحسب موقع CNN تعتبر أصواتنا فريدة أو أكثر تميزًا من بصمات أصابعنا، كما أن لأصواتنا خصائص محددة يبلغ عددها أكثر من ١٠٠ خاصية، بعضها تتعلق بسماكةِ وطولِ أحبالنا الصوتية، وشكل ألسنتنا، والجيوب الأنفية، أما ٥٠٪ الأخرى تتعلق بشخصياتنا، مثل النبرة والنغمة والسرعة.

ولذلك يحاول العلماء اليوم استخدام الصوت بدلاً من كلمات السر أو إثبات الشخصية، وبالتالي أصبح بإمكان أيّ شخص أن يجري أيّ معاملة -في البنك مثلاً- من خلال اتصال هاتفي فقط، من دون استخدام أيّ كلمة سر أو بطاقة ائتمان أو تعريف شخصية، فبصمة الصوت أدق من أيّ كلمة سر.

ولقد استغل البحث الجنائي هذه البصمة في تحقيق شخصية الإنسان المعين، حيث يمكنهم تحديد المتحدث حتى ولو نطق بكلمة واحدة؛ ويتم ذلك بتحويل رنين صوته إلى ذبذبات مرئية بواسطة جهاز تحليل الصوت "الإسبكتروجراف"، كما بدأت البنوك في أوروبا تستخدم هذه البصمة؛ حيث يخصص لبعض العملاء خزائن، وهذه الخزائن لا تفتح إلا ببصمة الصوت.

٦-بصمة الشفاة

لقد ثبت أن بصمة الشفاه صفة مميزة، لدرجة أنها لا يتفق فيها اثنان في العالم. وتؤخذ بصمة الشفاه بواسطة جهازٍ به حبر غير مرئي، حيث يضغط بالجهاز على شفاه الشخص بعد أن يوضع عليها ورقة من النوع الحساس، فتطبع عليها بصمة الشفاه، وقد بلغت الدقة في هذا الخصوص إلى إمكانية أخذ بصمة الشفاه حتى من على عقب السيجارة.

٧-بصمة المخ

ابتكر "لورانس فارويل" تقنية جديدة تعرف باسم "بصمة المخ" التي يمكن أن يتحدد من خلالها مدى علم المشتبه به بالجريمة، مما يمكّن المحققين من معرفة مرتكبي الجرائم. وتعمل تقنية فارويل الجديدة بقياسِ وتحليلِ طبيعة النشاط الكهربائي للمخ في أقل من الثانية لدى مواجهة صاحبه بشيء على علم به. وعلى سبيل المثال، إذا ما عُرض على قاتلٍ جسمٌ من موقع

تم استخدام بصمة المخ في قضايا الجرائم في تحديد مدى علم المشتبه به بالجريمة، وتمكّن المحققون خلال هذه البصمة من معرفة مرتكب الجريمة.

الجريمة التي ارتكبها -لا يعرفه سواه- يسجل المخ على الفور تعرفه عليه بطريقة لا إرادية، وتسجل التقنية ردود أفعال المخ بواسطة أقطاب كهربية متصلة بالرأس ترصد نشاط المخ كموجات، وأما الشخص الذي لم يكن في موقع الجريمة فلن يظهر على مخه أي ردة فعل.

٨-بصمة الأذن

يولد كل إنسان وينمو حاملاً بصمة أذنه المميزة والتي لا تتغير منذ ولادته وحتى مماته، ولا تتشابه بين شخصين على ظهر الأرض. توقع باحثون تغيير الإجراءات الأمنية في المطارات فيما يتعلق بتحديد هويات المسافرين عندما يتم استبدال البصمات التقليدية -كالأصابع ولون العينين- إلى بصمة جديدة تعتمد شكل الأذن.

ونشرت صحيفة الصنداي تلجراف البريطانية، تقريرًا بعنوان "فحص الأذن قد يكون وسيلة سليمة للتحقق من هويتك"، أشارت فيه إلى أن زمن بصمات الأصابع أو لون العينين أو الإجراءات الأمنية في المطارات، قد ينتهي قريبًا عندما يتم الاعتماد على الأذن لتحديد هويتك والسماح لك بدخول بلد ما.

هذا ويتوضح من كل ما سبق أن الإنسان كله بصمات؛ يده، قدمه، شفته، أذنه، دمه، شعره، عينه، وغيرها. وتخدم البصمات في إظهار هوية الشخص الحقيقية بالرغم من الإنكار الشخصي أو افتراض الأسماء، أو حتى تغير الهيئة الشخصية من خلال تقدم العمر أو المرض أو العمليات الجراحية أو الحوادث. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

hiragate.com

د. خالد بن عبد الله المزيني*

التعددية الفكرية
في الدولة الحديثة

التعددية ظاهرة بشرية قديمة إذ كانت العقول متفاوتة، والنزعات النفسية متباينة، والأغراض والأهواء مختلفة.. ولكل منظومة حضارية موقفها تجاه هذه الظاهرة، سواء كان مرجعها دينيًّا سماويًّا أو كان وضعيًّا أرضيًّا. والحكم الرشيد هو الذي يحتفظ لأطياف المجتمع ومكوناته المختلفة بهامش من الحرية، يسمح لها بالتعبير المنضبط، بحيث تبقى أصواتها داعمة لاستدامة التنمية وبث فكر الاعتدال والتوازن الاجتماعي والفكري. وتبقى سلطات الدولة هي القوة الناظمة لهذا التنوع، وهي قوة رشد تحمي ذات الأمة وتوجّه وتجمَع أطياف المجتمع على المشتركات والخيارات التي ارتضتها الأمة. وكانت الدول المتعاقبة في التاريخ الإسلامي، تستوعب قدرًا مناسبًا من التنوع والاختلاف، وكانت مؤسسات المجتمع الأهلي تدار من أشخاص مختلفين فكريًّا مع الدولة المركزية، سواء المدارس أو المستشفيات أو مؤسسات التمويل والاستثمار.

إن مفهوم "التعددية الفكرية" واحد من أهم المفاهيم الفكرية المعاصرة، ونقصد بالتعددية الفكرية؛ تفاوت الناس في أفكارهم ووجهات نظرهم حول القضايا المختلفة، سواء كان الاختلاف على مستوى القضايا

الدينية، أو على مستوى القضايا المدنية والعمرانية والنظم السياسية والمشاريع المعرفية، وانقسامهم على إثر ذلك إلى كيانات فكرية متباينة. هنالك مرجعيات متعددة لتنظيم العلاقة بين البشر، وأهم هذه المرجعيات؛ "الدين". وإذا كان الدين سماويًّا كان له سمو على سائر النظم، فأما إذا كان دينًا سماويًّا محفوظًا فلا ريب أنه الأجدر بتحقيق مصالح البشر في العاجل والآجل. ودين الإسلام بنصوصه وقيمه كفيل بتقديم الحلول لمعضلات البشرية في هذا المجال وإن كان لا ينفك يتعرض إلى هجمات تبتغي تشويه أحكامه افتراء وكذبًا.

لقد سادت في العصر الحديث رزمة من المفاهيم التي تسعى إلى التخفيف من حدة التنافر بين المختلفين فكريًّا وثقافيًّا، وتدعو إلى قواعد المحاسنة بين أبناء الثقافات المختلفة؛ كمفهوم التسامح، والاختلاف، والتعدد المذهبي، وقبول الآخر، والحوار، وتخفيف القيود على الأقليات.. وما من شك في أن الخلاف ليس مقصودًا لذاته، وإنما يقع اتفاقًا، بحسب ما جبل الله بني البشر عليه من التفاوت في العقول والأهواء، والدهر دول، كلما جاءت دولة عملت على استئصال خصومها ومخالفيها، وقطع دابرهم، واهتضام حقوقهم، وطمس تاريخهم، وتبديل معالم أرضهم.. ثم تدول الدولة لآخرين فيعاملون المغلوب بجنس ما عاملهم به في متوالية من البغي لا تكاد تنتهي. وإذا كان ذلك كذلك، فمن الحكمة أن تتجه الجهود والمشاريع إلى سلوك مسلك التهدئة الفكرية، ومناقشة القضايا الجوهرية بقدر عال من الإنصاف والموضوعية، بعيدًا عن التحشيد والتعبئة، أو البحث بروح الاعتماء عما لدى الغير من الخير، فإن مذهب الاستعداء وحرب الجميع للجميع، هو عدمية لا تنتج سوى إراقة الدماء وإشاعة الدمار، سواء اتخذت لباس الدين أو اللادين أو الليبرالية أو الفاشية أو الاشتراكية.

وهناك أنماط من التعدد يمكن الحديث عنها في هذا المقام، أي أن ثَمَّ تعددًا في التعدد؛ فهناك تعدد على أساس ديني، وآخر مذهبي، وثالث فكري، ورابع سياسي وهكذا. ونحن وإن ركزنا القول على التعددية الفكرية، إلا أنها لا تفتأ تتقاطع مع تعدديات في حقول أُخَر مجاورة له. والتعددية بوصفها مفهومًا حديثًا يضاف تارة إلى السياسة فيفيد معنى التنوع الحزبي السياسي

لا بد من وجود جوامع وروابط بين الجماعات المختلفة فكريًّا في المجتمع الواحد تكون الدرع الوقائي، فتحمي نسيجه من التهتك الداخلي والاختراق الخارجي، ولا بد من التوافق الاجتماعي على أطر جامعة وكلمة سواء، وإلا صار هذا التنوع تشرذمًا.

في مقابل أحادية الحزب الواحد، ويضاف أخرى إلى الفكر فيفيد معنى التنوع الفكري في مقابل أحادية الفكر وهكذا. وهي كذلك في اللغة الإنجليزية، مفردة (Pluralism) يراد بها التعددية، أي المذهب أو الفلسفة التي تدافع عن التعددية في المعتقدات والمؤسسات، تقابل (Minism) أي الأحادية، وهي أن ثمة مبدأ غائيًّا واحدًا. ويعرِّف "فورنيال" التعددية بأنها "وجود عدد من الجماعات المتمايزة ثقافيًّا تعيش في إطار مجتمع واحد، ولا يجمع بينها سوى التبادل الاقتصادي في السوق"، أي إنه لا يقع الالتقاء إلا لغرض التبادل السلعي بيعًا وشراءً. فهو يرى أن المجتمعات عرفت التعددية عندما تحررت السوق عن القيود الاجتماعية، وهذا -في نظره- ما لم تعرفه المجتمعات التقليدية سابقًا، وغني عن القول أنه يتحدث عن المجتمعات الغربية التي مكثت قرونًا في الحروب الدينية والمذهبية حتى تحررت بفعل الثورة الفرنسية (١٧٨٩). أما في الدولة الإسلامية فلم تكن هناك مشكلة في التعامل مع المخالفين من أتباع الديانات المختلفة، لأن الشريعة الإسلامية كانت قد رسمت الحدود المنظمة لحقوقهم وواجباتهم، بما يمنع حدوث الاحتقانات والتجاوزات والاحتراب الداخلي الذي عانت منه أوروبا في القرون الوسطى.

والتعددية في ظل الدولة الحديثة، تعني التنوع ضمن وحدة الجماعة وانخراطها تحت نظام واحد، ويندرج تحتها مفهوم الثنائية في مقابل الأحادية الفكرية أو السياسية، على أنه يجب التنبه إلى محذور يمكن أن يفضي إليه توظيف فلسفة التعددية، بأن يستخدم وسيلةً لتسويغ التقسيم السياسي -المذهبي والطائفي والعرقي- في البلدان التي يسودها الانقسام والحروب الأهلية الظاهرة والمضمرة كما في لبنان والسودان

hiragate.com

والعراق. فإن بعض المؤدلجين فكريًّا، أو المنحازين إلى الأهواء الطائفية والسياسية، يكثرون من الحديث عن التعددية مؤقتًا، في حين أنهم أبعد الناس عن امتثاله في راهن حالهم. والتعددية في المفهوم الحديث تفيد معنى التنوع في الاتجاهات الفكرية والمشاريع، ولذلك فهي لا يمكن أن تتأتى إلا تحت قبة الوحدة ومظلة الجوامع والمشتركات، وعليه فليس من مدلولاتها "التشرذم" و"القطيعة" التي لا جامع لآحادها، ولا على التمزق الذي انعدمت العلاقة بين وحداته، فإن من المراهقة الفكرية أن يطالب البعض بممارسة التعددية بلا قيد ولا شرط، وهذه الصورة المنفكة عن الضبط السياسي ليس سوى عدمية يوشك أن تؤدي إلى الفوضى والتلاشي.

وعلى هذا، فلا بد من وجود جوامع وروابط بين الجماعات المختلفة فكريًّا في المجتمع الواحد تكون بمثابة الدرع الوقائي، فتحمي نسيجه من التهتك الداخلي والاختراق الخارجي، ولا بد من التوافق الاجتماعي على أطر جامعة وكلمة سواء، وإلا صار هذا التنوع تشرذمًا يقود إلى خصومة ومناكفة واحتراب. والتعددية الفكرية التي نتحدث عنها هنا، نعني بها تفاوت المواطنين في دولة ما؛ في أفكارهم ووجهات نظرهم حول القضايا المختلفة، سواء كان الاختلاف على مستوى القضايا الدينية، أو على مستوى القضايا المدنية والعمرانية والنظم السياسية، وانقسامهم على إثر ذلك إلى كيانات فكرية متباينة، كالتيارات الفكرية المعروفة. وأقصد بالأفكار: كل ما تتبناه التيارات الفكرية المتباينة من رؤى، وما تستند إليه من أيديلوجيات تشكل لها منهجًا، وتمتاز بها عن نظيراتها، بحيث يصدق عليها أنها تيار فكري.

فأما إذا كانت هذه الكيانات الفكرية في دولة واحدة، وأخذت شكل التيار الفكري المنظم، وصارت له مرجعياته الفكرية الخاصة؛ فحينئذ تنعقد إشكالية التعددية الفكرية بثوبها المعاصر. فهذه الصيغة من صيغ التنوع هي المقصودة بهذا المثال، وإلا فثم تعدديات كثيرة غبرت في هذه الأمة، كان الإشكال العملي معها أهون من الإشكال المنعقد في الوضع المعاصر.

وقد كتب المتقدمون من الفقهاء والأصوليين عن ظاهرة التعددية المذهبية في المجال الفقهي، وفي المجال العقدي الكلامي أيضًا، ومن الكتب المفردة في تحرير أسباب هذه الظاهرة في المجالين معًا كتاب "الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين"، لمؤلفه عبد الله بن محمد بن السِّيْد البطليوسي (٥٢١هـ) رحمه الله.

يقول البطليوسي في مطلع كتابه، مبينًا غرضه في استقصاء الأسباب الموجبة للتعددية: "وليس غرضي من كتابي هذا أن أتكلم في الأسباب التي أوجبت الخلاف الأعظم بين من سلف وخلف من الأمم، وإنما غرضي أن أذكر الأسباب التي أوجبت الخلاف بين أهل ملتنا الحنيفية، التي جعلنا الله تعالى من أهلها، وهدانا إلى واضح سبلها، حتى صار من فقهائهم المالكي والشافعي والحنفي والأوزاعي، ومن ذوي مقالاتهم الجبري والقدري والمشبه والجهمي، ومن شيعهم الزيدي والرافضي والسبئي والغرابي والمخمس والمحمدي، وغير هؤلاء من الفرق الثلاث والسبعين التي نص عليها رسول الله ﷺ، ولا غرضي أيضًا أن أحصر أصناف المذاهب والآراء، وأناقض ذوي البدع المضللة والأهواء، لأن هذا الفن من العلم قد سبق إليه ونبه في مواضع كثيرة عليه، وإنما غرضي أن أنبه على المواضع التي منها نشأ الخلاف بين العلماء، حتى تباينوا في المذاهب والآراء". إذن هو يحصر عمله في البواعث الموضوعية للتعدد الفقهي والفكري أيضًا، ومن ثم كان عمله غاية في الأهمية، خصوصًا مع تقدم زمانه القرن السادس الهجري.

ثم جاء من بعده أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الحفيد (٥٩٥هـ)، فحرر أسباب الخلاف الفقهي في كتابه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد"، ونثرها في أثناء كتابه هذا، مع كونه يعالج كتابةً فقهية، فيورد الفروع الفقهية في كل باب، ويذكر أقوال المذاهب المالكية والحنفية والشافعية، مما يعرف بالخلاف العالي، ثم يتبعها ببيان سبب الخلاف في المسألة، فهذا بحث في أسباب التعددية الفقهية. ثم أعقبهم شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) فاستقرأ أسباب الخلاف بين أئمة المذاهب الفقهية في رسالته "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، وهي رسالة علمية مختصرة ومركزة، فيها تحريرات مهمة وتقريرات موضوعية وأخلاقية. ■

(*) جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، الظهران / المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

عمر هاشم محمد*

عالم الإشارة

هل صادفت في يوم من الأيام -وأنت تسير في الطريق- شخصًا لا يستطيع أن يشرح لمن يحاول مساعدته ماذا يريد؟ ثم اكتشفت فيما بعدُ أن كلاً منهما يتحدث بلغة لا يعرفها الآخر. هذه الحالة قد يُعانيها شخص عند ذهابه لبلد يجهل لغته، فما بالك بمن يتعرض لهذه المعاناة يوميًا، ليصل به الحال أن يخشى من النزول إلى الشارع بمفرده، والشعور بالغربة وسط أهله وداخل وطنه؟! ولكن رحمة الله التي وسعت كل شيء ألهمت بعض الأصحّاء بالتطوع لخدمة هؤلاء وكسب صداقتهم، وكانت أول خطوة بتعلم لغتهم.

هذا وأقدم إليكم من واقع خبرتي بهذا العالم الصامت (عالم الصم وضعاف السمع) بعض المعلومات.

الإعاقة السمعية

يُقصد بالإعاقة السمعية تلك المشكلات التي تحول دون أن يقوم الجهاز السمعي عند الفرد بوظيفته، أو تقلِّل من قدرة الفرد على سماع الأصوات المختلفة.

إذن ما هو الصمم؟

الصمم هو النقص الجزئي أو الكلي في القدرة على سماع الأصوات أو فهمها، ويقال للشخص ضعيف أو منعدم السمع: أصم.

إذن من هو الأصم؟ ومن هو الأبكم؟

الأصم هو الشخص غير القادر فعليًا على الكلام، أو الشخص الذي فقد القدرة على نطق الحروف، بل هو قادر فقط على إصدار الأصوات من الحنجرة دون المرور بالأوتار الصوتية. والأبكم هو الشخص الذي يعاني من مشاكل في أعضاء إنتاج الكلام أو خلل في مراكز إنتاج الكلام في الدماغ، ولكن يكون جهاز السمع لديه سليمًا، وتكون المشكلة لديه في النطق، ويمكن التدخل للتغلب على هذه المشكلة من خلال التأهيل وعلاج النطق لدى الشخص.

من هنا ندرك أن الأصم هو من تكون لديه مشكلة في أعضاء السمع ولكن أعضاء إنتاج الكلام عنده سليمة، لذلك لا يستطيع نطق الأصوات لأنه لا يسمعها ولو سمعها لنطقها، وهذا ما لا يعلمه الكثير، لذلك فالمُسمى الأفضل هو "الصم وضعاف السمع" وليس الصم والبكم.

مستويات الإعاقة السمعية

تبدأ مستويات الإعاقة السمعية من ضعف سمعي بسيط ومتوسط إلى أن تصل لضعف سمعي شديد (حالات الصمم/عدم القدرة على السمع نهائيًا).

ويصنَّف الصمم إلى نوعين وفقًا لوقت حدوث الإعاقة السمعية:

١- صمم فطري خلقي (Congenitale)، ويوصف به أولئك الأطفال الذين ولدوا صُمًا.

٢- صمم عارض أو مكتسب (Adventitious)، ويوصف به أولئك الذين ولدوا بحاسة سمع عادية، ثم أصيبوا بالصمم لحظة الولادة أو بعدها مباشرة قبل اكتسابهم الكلام واللغة، أو في سن الخامسة بعد اكتسابهم الكلام واللغة، مما ترتب عليه فقدانهم المهارات اللغوية بصورة تدريجية، وذلك نتيجة الإصابة بمرض ما، أو التعرض إلى حادثة أدت إلى الفقدان السمعي. فعلى الآباء الانتباه والاهتمام بأطفالهم عند شكاياتهم حول السمع، وإلا ستكون عائقًا في حياة الطفل نفسيًا وتعليميًا، لأنه إذا وقع فقدان كبير في السمع -قبل سن الخامسة- تتلاشى من مخيلة الطفل الذكريات المتعلقة باللغة والكلام تدريجيًا فيتساوى مع الطفل الذي ولد أصم.

النطق عند الصم

لا علاقة بين الإعاقة السمعية وانعدام القدرة على النطق كما وضحنا، وبعض الصم الذين أصيبوا في مراحل عمرية متقدمة (٣ سنوات فما فوق) عندهم قدرة على التعبير لفظيًا، وتطور النمو اللفظي عن طريق تدريبات التخاطب.

لغة الإشارة

عندما نسمع كلمة "لغة الإشارة" لأول وهلة، يخطر بالأذهان صورة الأشخاص الذين نراهم في الشوارع يشيرون بأيديهم، ولكن كيف يتفاهم هؤلاء مع الناس؟

تعريف الإشارة: هي مجموعة من الإشارات اليدوية اصطلح عليها الصُم لتكون طريقة للتواصل فيما بينهم من جهة، وبين الأصم وأخيه السويّ الذي أتقن هذه اللغة من جهة أخرى.

تاريخ لغة الإشارة: تواجدت لغة الإشارة مذ أن تواجد الصم في العالم، وكانت أول محاولة لجمع مفرداتها في القرن السابع عشر في مدريد عام ١٦٢٠، حيث نشر "جوان بابلو بونيت" مقالة بالإسبانية بعنوان "اختصار الرسائل والفن لتعليم البكم الكلام"، فاعتُبر هذا أول وسيلة للتعامل مع علم الأصوات ومعالجة صعوبات النطق.

كما أنها أصبحت وسيلة للتعليم الشفهي للأطفال الصم بحركات الأيدي، والتي تمثل أشكال الأحرف الأبجدية لتسهيل التواصل مع الآخرين. ومن خلال أبجديات "بونيت" قام الأطفال الصم في مدرسة "تشارلز ميشيل ديليبي" باستعارة تلك الأحرف، وتكييفها بما يعرف الآن بدليل الأبجدية الفرنسية للصم، وقد نُشر دليل الأبجدية الفرنسية في القرن الثامن عشر، ثم وصل حتى زمننا الحاضر بدون تغيير. ولقد استُخدمت لغة الإشارة الموحدة في تعليم الصم في إيطاليا وغيرها بعد ذلك.

hiragate.com

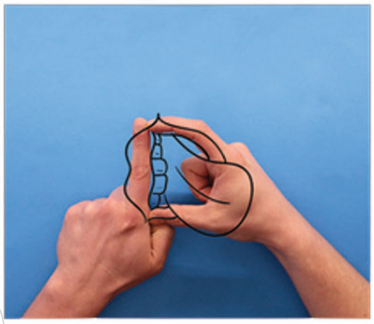

معلومات لا بد منها: هناك بعض المعلومات يجب أن نعلمها عن لغة الإشارة بشكل عام وهي:

• هذه اللغة تستخدم في كثير من بلدان العالم وإن كان يوجد بعض الاختلافات من بلد لآخر بسبب التوزيع الجغرافي.

• ليست لغة الإشارة طريقة أخرى لاستخدام اللغة العربية أو بديل عنها مثل الكتابة، بل علينا أن نُعلّم الأصم القراءة والكتابة حتى لا يصبح جاهلاً.

• لغة الإشارة لا يمكن تعلُّمها من الكتب، وإنما عن طريق أستاذ مع الممارسة، والأهم الاختلاط بالأصم المستخدم الأول للغة.

• هذه اللغة كأي لغة، بها بعض "الأسرار" لا تنكشف إلا بمخالطة الصم فترات طويلة، مثل اختصارات الإشارات، الترحيب، ترتيب الكلمات في الجملة.

محتويات لغة الإشارة: أولاً لكي نتعرف على ما تحتوي هذه اللغة من أسرار، لا بد أن نبحث عن مُعلِّم يأخذ بأيدينا ويعطينا مفاتيح هذه اللغة. فتجربتي عندما أردت أن أتعلم لغة الإشارة، ذهبت في مصر إلى إحدى الجمعيات الخيرية والتحقت بنشاط الصم وضعاف السمع، وبدورة تدريبية مدتها ثلاثة أشهر. فعرفت من أستاذتنا في أول محاضرة أنَّ لغة الإشارة تعتمد على حركة اليدين، لغة الجسد، تعابير الوجه، ويمكن إضافة تحريك الشفاه لضعاف السمع.

وبالتالي يمكن تقسيم لغة الإشارة إلى:

• إشارات تحاكي طريقة استخدام الشيء، مثلاً غسل الملابس، القطع بالسكين.

• إشارات تحاكي شكل الشيء، مثل طائرة، فيل.

• إشارات تحاكي طريقة تنفيذ الفعل، مثل يمشي، يجري.

• إشارات تشير إلى مكان الشيء، مثل الكبد، العين.

وبعد أن تعلمت أساسيات لغة الإشارة سألت نفسي: ما الهدف من تعلمي هذه اللغة؟! هل الفضول أو المباهاة بمعرفة شيء مميز أم شيء آخر؟ فحاولت أن يكون الهدف هو الخدمة؛ خدمة هذه الفئة المهمشة في المجتمع العربي خصوصًا. لقد أخرجت لنا منظمة الصحة العالمية في تقرير على موقعها الرسمي بشهر فبراير عام ٢٠١٤، معاناة نسبة تتجاوز ٥٪ من سكان العالم -أي ما يقارب ٣٦٠ مليون شخص- من فقدان السمع المسبب للعجز بنسبة ٣٢٨ مليونًا من البالغين و٣٢ مليونًا من الأطفال. ثم إن نسبتهم حاولي ٥ ملايين أصم في مصر، وما يقارب من ١٢ مليون أصم في الوطن العربي.

ولا شك أن هذا الكم الهائل يحتاج إلى جيش من المترجمين المتطوعين، فأقول يا ليت بعض الضباط يتعلمون لغة الإشارة لحفظ حقوق الصم.. يا ليت بعض الأطباء يتعلمون لغة الإشارة لمداواة الصم.. يا ليت المدارس تقيم دورات صيفية للغة الإشارة.. يا ليت المحاكم والجامعات وأقسام الشرطة والمستشفيات والمصالح الحكومية تهتم بهذه اللغة حتى لا يجد الصم وضعاف السمع صعوبة في التواصل مع الناس والتفاهم معهم.. يا ليت ذلك. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

حياة الدسوقي*

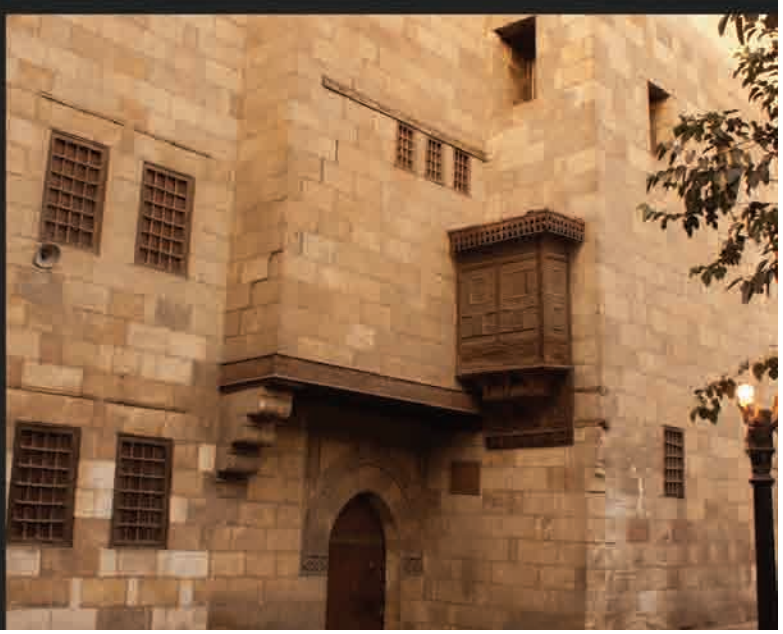

منزل زينب خاتون

منزل فريد من نوعه، جمع بين فنون العمارة المملوكية والعثمانية في آن واحد. يقع منزل زينب خاتون في القاهرة عند زاوية تقاطع زقاق العيني مع شارع الأزهر، أو خلف الجامع الأزهر بالتحديد. كان المنزل للأميرة "شقراء هانم" ابنة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، التي توفيت -كما يذكر المقريزي- سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م. ويرى علماء الآثار الفرنسيون أن هذا المنزل بني في أواخر العصر المملوكي، وتم تجديده في القرن الثامن عشر الميلادي ليظهر عليه الطابع العثماني وتؤول ملكيته إلى "زينب خاتون".

وتذكر المصادر أن زينب خاتون كانت وصيفة محمد بك الألفي، وبعدما أعتقتْ تزوجت أميرًا يدعى الشريف حمزة الخربوطلي فأصبحت أميرة ذات شأن ومكانة. لم تكن زينب خاتون بعيدة عن السياسة في ذلك الوقت، فقد لعبت دورًا هامًّا إبان الحملة الفرنسية على مصر في القرن الثامن عشر (عام ١٧٩٨)، حيث آوتْ الفدائيين المصريين الذين لاحقهم الجنود الفرنسيون، وهذا ما ذكره الجبرتي في تاريخه.

النمط الفني والمعماري

عندما نلج المنزل من مدخله المنكسر -وهو ما يميز العمارة الإسلامية العربية عن غيرها- نشعر وكأننا دخلنا عالمًا من الهدوء والسكينة. ولعل الميزة الأساسية لهذا المدخل المنكسر منع مَن في الخارج رؤيةَ مَن في الداخل. هذا الممر ينقلنا إلى الصحن؛ الحوش الكبير

المحيط بأركان البيت الأربعة. وأما الهدف من تصميم البيت بهذا الشكل، هو ضمان وصول الضوء والهواء لواجهات المنزل وما يحويه من حجرات.

من المعلوم أن الصحن سمة أساسية لعمارة البيوت في العصرين المملوكي والعثماني، وهو مكشوف، يحتوي على مندرة يتم فيها استقبال الضيوف من الرجال من جانب، ومن جانب آخر يُتَمكَّن من الحفاظ على حرمة الرجل وأهله في القصر. يوجد في هذا الصحن أيضًا مكان لخيل الأمير وضيوفه، وكذلك المزيرة المفتوحة على الهواء الطلق، إذ وضعت في مكان لمصدات الهواء لتبريد الجو والماء معًا، ثم المطبخ والطاحونة ومخزن الغلال.

أما الطابق الثاني فيتألف من السلاملِيك المخصَّص لجلوس الرجال وهو عبارة عن غرفة واسعة كبيرة مطلّة على صحن المنزل، ومن الحرَمْليك الخاص بالحريم. بالإضافة إلى دورٍ كامل خاص بالأميرة يتميز بزجاجه الملوَّن بالأزرق والأخضر اللذين يمنحان النفس الراحة والطمأنينة. أما الحمام فهو يتكون من ثلاثة أقسام؛ الحمام نفسه، ثم غرفة التدليك وفيها ملحق للاستراحة، وغرفة للبس.

أهم ميزة المنزل

لقد نجح المعماري المسلم، بعقيدته وأخلاقه، أن يحقق تقنين الضوء باستخدامم المشربية ونوافذ الزجاج المعشق بالجص، وذلك كحلول مبتكرة وفعالة تتلاءم مع العقيدة الدينية السمحة والمحافظة على القيم والتقاليد، وكذلك استخدام وتوظيف ما وهبته له البيئة المحيطة، كما يتجلى ذلك في الفناء الداخلي للمنزل. فهذا الفناء يحجب الساكن عن أنظار العالم الخارجي ويحميه من تقلبات الطبيعة، كما يتيح له التمتع بالسماء، وبالتالي تقوي الروابط الأسرية، وتقوي الشعور بالانتماء للأرض، كما تعني الكثير من الخصوصية. وبذلك يكون المعماري المسلم قد نجح في إدخال الطبيعة إلى منزله، المتمثلة في السماء المفتوحة على صحن المنزل.

والمقصود بالمشربية هنا، ذلك الجزء البارز عن سمت حوائط المباني التي تطل على الشارع، أو على الفناء الأوسط للمنازل الإسلامية، ويستند هذا الجزء على كوابيل أو مدادات من الحجر أو الخشب تربط الجزء البارز من المبني، بينما تغطي الجوانب الرأسية الثلاثة لهذا الجزء البارز حشوات من الخشب الخرط المكون من "برامق" مخروطية الشكل دقيقة الصنع تجمع بطريقة فنية، بحيث ينتج عن تجمعها أشكال زخرفية هندسية وبنائية مستوحاة من الطبيعة؛ كأوراق الشجر من بعض التحوير الذي أضفى عليها جماليات غير مسبوقة، وهي تعبير عن المطلق والمجرد وصولاً للقيمة الإيمانية.

وسميت المشربية بهذا الاسم حيث كانت توضع بها أواني الشرب "القلل الفخارية". وتعرف المشربية في بعض البلدان الإسلامية باسم "روشن" أو "روشان"، وهي تعريب للكلمة الفارسية "روزن"؛ وتعني "الكوة" أو "النافذة". تستعمل المشربيات قي الجزء السفلي من السكن لكسر حدة الضوء والمحافظة على خصوصية المكان، أما الأجزاء المرتفعة فتستعمل لها مشربيات أوسع تساعد على التهوية.

ويعتبر المعماريون والفنانون، أن المشربيات الموجودة في منزل زينب خاتون، هي أعلى ما وصلت إليه درجة الإتقان في العصر المملوكي، وكذلك القطوع الخشبي المنقول من مدرسة السلطان حسن إلى متحف الفن الإسلامي.

القباب ورمزيتها

يرى مؤرخو الفن، أن القبة التي لجأ إليها المعماري المسلم من ناحية البناء، هي تنقية وترطيب للمكان؛ حيث يصعد الهواء الساخن إلى أعلى، وبفعل جوانب القبة الدائرية تحدث مصدات للهواء فتبرد الهواء، ومن ناحية أخرى وبما أن العربي كان متصلاً بالطبيعة، فقد حوَّل الطبيعة داخل بيته في صورة عناصر معمارية. وقد رأى بعض الدارسين أن القبة هي رمز روحاني لإحاطة دائرة الوجود التي تكتنف المسلم داخل البيت متمثلة في القبة، وخارج المنزل متمثلة في السماء، وكأن المسلم يحيا بإرادة أن يكون في كنف خالقه دائمًا. ■

(*) كاتبة وباحثة مصرية.

hiragate.com

أ.د. بركات محمد مراد*

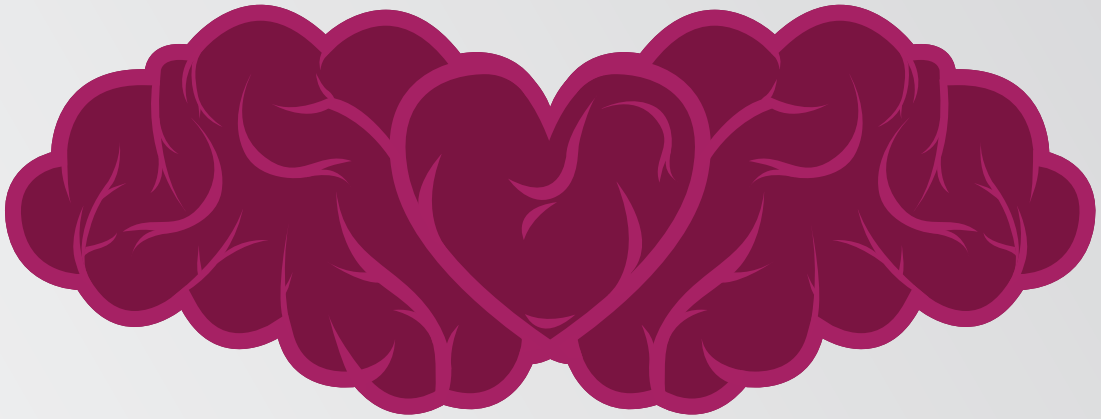

الذات والآخر

ودعوة إلى التواصل والمثاقفة

١ الحداثة موقف فكري جديد ورؤية فلسفية للنظر إلى الذات والعالم طبقًا لمنظورات مختلفة عن المرجعيات التقليدية الموروثة والمرجعيات المستعارة من الآخر، وغايتها إعادة ترتيب الواقع والفكر طبقًا لحاجات اللحظة التاريخية المتجددة. وهي لا تقر بالثبات إنما تتطلع دائمًا إلى التجدد، وبذلك تنتج فكرًا يتحول باستمرار متخطيًا فكرة الهوية القارة واليقين الثابت، وبهما تستبدل هوية ثقافية وقيمية متحولة ومنفتحة تقر بنسبية علاقتها مع نفسها وتاريخها وفرضياتها بالدرجة نفسها التي تقر فيها بنسبية الهويات الأخرى، وتشكل مضمونها من نسيج متنوع الموارد يقوم على فكرة الحوار والتواصل والتفاعل، ثم تقليب المفاهيم والنظريات والمرجعيات الموروثة والمستعارة على كل الأوجه والاحتمالات عبر ممارسة نقدية جريئة. فبدون النقد تظل العلاقة مع المؤثرات الأخرى علاقة استتباع وخوف وقلق وتوتر.

ولذلك نحن نسلم مع الدكتور "أنطوان سيف" بأن وهن الثقافة العربية الراهنة ليس ناجمًا عن غربتها عن تاريخها، بل ناجم عن غربتها عن"تاريخيتها"، أي عن عدم وعيها شروط موقعها في بنية المرحلة التاريخية ماضيًا وراهنًا.

وقد تزعم الثقافة العربية والإسلامية الآن، أنها

متفوقة على جميع الثقافات الأخرى، وقد تدّعي أنها تمتلك أدوات معرفية فوق كل شبهة، ولكن هل هذا سيكون كافيًا ليمكّنها من الانكفاء على ذاتها، ويجنّبها الاحتكاك بثقافات أخرى متفوقة عليها؟ أم أنها ستضطر في الأخير إلى الاعتراف بـ"الآخر المتفوق" وإن كان خصمًا لها أو عدوًّا؟

أوليس من المفارقات أن تتحدث هذه الثقافة بكل فخر عن تلك الحقبة من التاريخ، التي سيطرت فيها على العالم، وساهمت في تكوين ثقافة الآخر، والتي بفضلها خرجت الثقافة الغربية من عصورها المتخلفة والمظلمة، وشهدت نهضة استمرت في التقدم دون انقطاع إلى وقتنا الحاضر، وبالمقابل ترفض أن تدخل مع هذا الآخر في عملية "مثاقفة" ولكن في الاتجاه المعاكس هذه المرة، رغم أن ظروف العصر تتطلب وبإلحاح ذلك؟!

ومن هذا المنطلق، يعتقد الباحث "أنطوان سيف" أن "انكفاء الوعي على ذاته بعد ارتداده عن الموضوعات الخارجية التي كان يشرف عليها بثقة مفرطة بذاته، هو حافز لارتقائه إلى فكر ناقد لأدوات عمله، وإلى فكر مُسائل مساءلة استعلائية حول ماهيته وهويته".

ولا سبيل لتجاوز سلبيات الأيديولوجيات التراثية إلا بمواجهة الذات أولاً؛ للتعرف على أسباب الضعف التي أدت إلى هذا السبات الطويل من التأخر، وبالاعتراف على "الآخر المتفوق" ثانيًا؛ لأن الرهان الأجدى "هو المبني على معركة فكرية تعرف عناصرها معرفة معمقة". ويرى الباحث أن هذه المعرفة مستحيلة ما لم ننفتح على الخصم: "إنه منطق تاريخ الثقافة وحياتها ودورها ووظيفتها"، بل ويذهب "سيف" إلى أبعد من ذلك عندما يقرر أن "الخصم" "هو ضرورة ثقافية، نقيض ضروري، وتزداد ضرورته قيمة مع قيمة طروحاته وتحديها لنا، وقدرته على زحزحة بُنى فكرنا، وتأخذ المثاقفة معناها وتعنى بمتطلبات وظيفتها بقدر ما يقترب أطراف التثاقف من التوازن في التحدي المتبادل".

رهاننا هنا هو الشروع في مواجهة الذات ووعيها، والشروع في نقد أدواتها المعرفية من أجل الاستفادة من إيجابيات "المثاقفة" مع الأخذ في الاعتبار حقيقة أن الحاضر متصل بالماضي، وأنه من المستحيل أن

لا سبيل لتجاوز سلبيات الأيديولوجيات التراثية إلا بمواجهة الذات أولاً للتعرف على أسباب الضعف التي أدت إلى هذا السبات الطويل من التأخر، وبالاعتراف على "الآخر المتفوق" ثانيًا.

توجد "قطيعة ثقافية" بالمعنى الحرفي والمطلق، وأن كل حضارة هي عبارة عن تراكمات تتصل بالماضي. لذا فلا معنى لدعوة من ينادي باستعادة التاريخ من أجل علاج الأزمات والتحديات التي تواجهها الثقافة العربية والإسلامية، ذلك لأننا لم نفقد التاريخ لكي ننادي باستعادته، فالماضي والحاضر تاريخ واحد يتحرك إلى الأمام، وهو غير قابل للارتداد أبدًا.

ومن هنا علينا أن نسلم بأن النخبة العربية الثقافية لم تدرك أهمية دورها، ولم تمارس شيئًا من ذلك الدور، إذ إن نسيج المجتمع التقليدي لم يتعرض للتحليل والتشريح والنقد، فنشأ مع الزمن خوف من الاقتراب إلى هذا الموضوع الذي يكاد يعتبره الجميع قيمًا مقدسة لا يصح نقدها. والحق، ما من مسافة تفصل المثقف العربي عن شيء آخر، أبعد من المسافة التي تفصله عن مجتمعه، وحتى لو ادعى الاقتراب إليه فهو اقتراب محكوم بدرجة عالية من سوء التفاهم وسوء الظن. وهذا الوضع هو الذي قاد -وبصورة لا تقبل اللبس- إلى نبذ المجتمع للمثقف وعدم تقديره دوره، إلا بوصفه كائنًا غريبًا يُحتفى أحيانًا به لكن لا موقع فاعلاً له في الأوساط الاجتماعية.

ومن المؤسف أن أفضل التحليلات الفكرية والأنثربولوجية والتاريخية والاجتماعية والأدبية المعتمدة في الأوساط الأكاديمية التربوية، قام بها دارسون غربيون لمجتمعنا وثقافتنا وديننا وتقاليدنا وأدبنا، وهي تحليلات تعكس رؤيتهم ومرجعيتهم التي يصدرون عنها أكثر مما تعبر عن حقيقة الموضوعات التي درستها، وكثيرًا ما جرى تعسف في إخضاع المادة المدروسة لتوافق الخلفيات الثقافية التي توجههم، وذلك يفضح قصور النخبة الثقافية التي لا يمكن وصفها إلا بأنها تلاعبت بمجتمعها دون أن تضع في اعتبارها أمر تحديثه، ولهذا نبذت وتقطعت روابطها، وانعزلت عن

hiragate.com

لا معنى لدعوة من ينادي باستعادة التاريخ من أجل علاج الأزمات والتحديات التي تواجهها الثقافة العربية والإسلامية، ذلك لأننا لم نفقد التاريخ لكي ننادي باستعادته، فالماضي والحاضر تاريخ واحد يتحرك إلى الأمام، وهو غير قابل للارتداد أبدًا.

خلفياتها الاجتماعية، واستأثرت بالمكانة النخب الدينية والسياسية والعسكرية.

ومن الواضح أن تواطؤًا قد وقع بين هذه النخب أفضى إلى استبعاد النخبة الثقافية التي لم تنجح من قبل في إنجاز وعودها، إلى درجة صار سؤال التحديث -الذي يفترض أن تثيره النخبة الثقافية- سؤالاً محضورًا ومشبعًا بمعاني تثير المخاوف في المجتمع وتبعث استعداء للمثقف، مما جعل سؤال الحداثة اليوم بالنسبة للعرب والمسلمين لا جواب عليه، فهو ضائع في خضمّ التوترات العرقية والمذهبية، ومتقطع بين التطلعات المتناقضة، وعالق بين التيارات المتعارضة، وشبه مفرغ من المعنى في ظل العولمة.

في بحث مطول وتحت عنوان "نحو تحرير الروح العربية الإسلامية من عقالها" كتب هاشم صالح عن أمنيته في حدوث كارثة، لكن كارثة من شأنها أن تدفع إلى انهيار. وهو يشدد على ذلك بقوله: "ينبغي أن يحصل انهيار وأن يتفجر في وجهنا الزلزال"، فمن شأن الانهيار أن يولد مزيدًا من الأسئلة، بصورة أدق أن يدفع بالأسئلة المحجوبة في أعماق الواقع والمكبوتة في تلافيفه إلى الواجهة.

إن هاشم صالح يدفع إلى الواجهة بنظرية التحدي والاستجابة، ولكن بصورة أكثر فجائعية، بحيث يمكن القول إنها التعبير الأكثر حدة عن أيديولوجيا الإحباط التي تستبطن مسيرة الخطاب العربي المعاصر والتي تدفعه إلى النكوص على عقبيه، والدعاء على مجتمعه بالويل والثبور، بصورة أدق بالقيام بإحراق البجعة المحتضرة (المجتمع العربي التقليدي) وإعادة بنائه من جديد على غرار الغرب كما دعانا بعض المفكرين العرب في أواسط عقد السبعينات من القرن المنصرم.

إن فجوة عميقة تفصل بين الواقع والحلم في الحياة العربية والإسلامية الحديثة "وفي الوقت الذي ينزع فيه الشعب نحو التوحد محليًا أو إقليميًا ، أو على صعيد عربي شامل، وتعلن الطبقات الحاكمة عن تمسكها بالهوية العربية في تصريحاتها وخطبها العامة ودساتيرها التي نادرًا ما تتقيد بها، نجد أن المجتمع العربي يزداد معاناة من التشتت والتنافر والعجز والتراجع أكثر من ارتباطها بنفسها".

ومن هنا يرى الباحث "حليم بركات" أن الحل يكمن في بروز نوع ثالث ما بين القطري والقومي، ينطلق للعمل المشترك على رؤية حضارية تفهم الهوية على أنها دائرة منفتحة على التاريخ والواقع والحضارات الأخرى، ولكنها تؤكد -في الوقت ذاته- على حقوقها بقدر ما تحترم غيرها. هذا هو النزوع الذي لم يترسخ بعد في الثقافة العربية، لذا ليس من الغريب -إذن- أن يستمر المجتمع العربي والإسلامي في موقعه الهامشي ساعيًا بإحساس مأساوي لتجاوز الحاضر.

لقد انطلق الكاتب حليم بركات في رؤيته للتغيير التجاوزي من عبارة جميلة لجبران خليل جبران قال فيها:" ليس التقدم بتحسين ما كان، بل بالسير نحو ما سيكون". وهي تشكل ركيزة مهمة لمسألة التغيير التجاوزي بمختلف إشكالياتها. انطلاقًا من هذه الرؤية المنهجية يدعو الباحث إلى "ثقافة التحول الشامل من حالة الانفعال إلى حالة الفعل بالتاريخ، وذلك بتجاوز الأوضاع والأنظمة السائدة التي هي في صلب استمرارية التخلف العربي والإسلامي وتجلياته وإحباطاته ومشاريعه المستقبلية.

ويرى الباحث "مسعود ضاهر" أن مبرر هذه الدعوة إلى التغيير التجاوزي الشمولي، يكمن في رؤية المجتمع العربي الراهن على حقيقته "كمجتمع مغلق ومنكفئ على ذاته، ومُصر على التمسك بثقافته ومؤسساته التقليدية التي تقاوم التغيير والتفاعل الجريء مع الحضارات الأخرى من موقع غياب الثقة بالذات ومخاوف الانزلاق في متاهات التاريخ". لذا تندرج توصيات الباحث في إطار تعزيز دور المثقف المبدع في عملية التغيير، وليس

hiragate.com

تجسير الفجوة مع الأنظمة السلطوية الحاكمة في الوطن العربي، وأبرز تلك التوصيات هي:

• العمل على أن تنال المؤسسات الثقافية الرسمية وشبه الرسمية الاستقلالية الضرورية للتعبير عن نفسها بحرية، ويرافق هذا العمل تشجيع قيام المؤسسات والجمعيات الثقافية الطوعية.

• تجديد القيم التي يجب أن ينشأ عليها العربي منذ الطفولة وما بعدها، ليس بالتلقين وفرض الامتثال، بل بخلق المجالات والأجواء الضرورية للتعلم من خلال الممارسة اليومية وانفتاح الآفاق واتساع الرؤية.

• إحداث ثورة في التعليم الجامعي بإحداث موازنة خلاقة بين التعليم والبحث وخدمة المجتمع وبين العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية والفنون، لا بل إنشاء معاهد ومراكز الأبحاث في المجالات كافة بدءًا من تلك التي لها علاقة بالواقع وحاجات المجتمع والشعب.

• التعامل مع النظام الكوني الجديد من موقع الاستقلالية، والاستفادة من الثورات المعلوماتية من دون تجاهل الجانب المظلم من العولمة. لا بد للمثقف العربي من التمرس بالإبداع من دون خوف أو رقابة ذاتية، وبهذا لا يفكر فقط بما اعتدنا التفكير فيه ولا بما يسمح له بالتفكير به، بل بما يمكن التفكير فيه.

• وأخيرًا وبقدر المطالبة من قبل المثقفين بإطلاق حرية التفكير النقدي والتساؤلي، وحرية الصراع الثقافي بحصول الاستقلالية عن سطوة الدولة على الثقافة، لا بد للمثقفين أنفسهم من معالجة مشكلة عزلة المثقف عن الشعب، وفي إقامته علاقة سليمة بين المثقفين والشعب. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

المراجع

(١) وعي الذات وصدمة الآخر، لأنطوان سيف، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ٢٠٠١م.

(٢) نحو تحرير الروح العربية الإسلامية من عقالها، لهاشم صالح، مجلة نزوي، العدد:٨، أكتوبر ١٩٩٦م.

(٣) المجتمع العربي في القرن العشرين، لحليم بركات، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠١م.

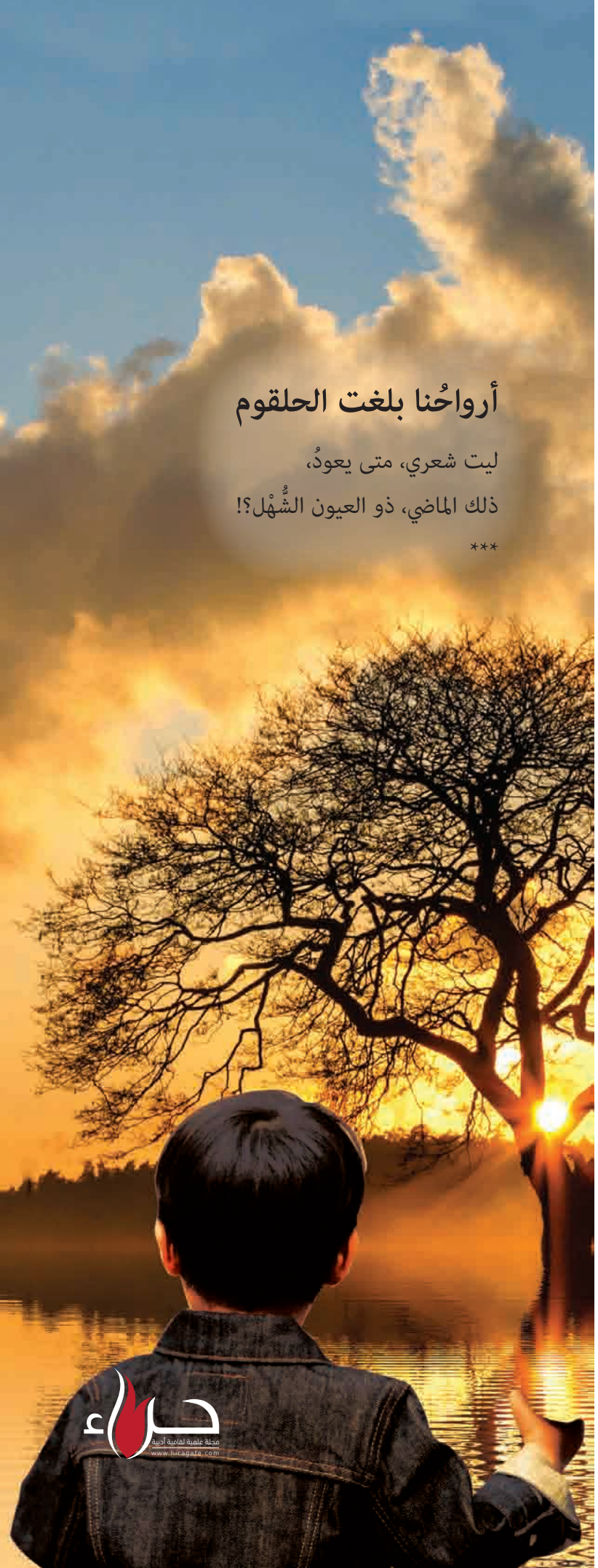

د. سعاد الناصر*

الأسس الفاعلة في الانبعاث الحضاري

سادت البشريةَ حضاراتٌ وأمم مختلفة ومتنوعة تركت بصماتها على العالم، منها حضارة الإسلام التي تحمل في ذاتها مقومات انبعاثها من حالات الوهن والانحطاط والتبعية كلما سقطت فيها، مستمَدة من تدبر محكم للقرآن الكريم ولسنة رسول الله ﷺ، ومن تَبصُّرٍ لمبشرات المد الحضاري والتاريخي للأمة واستعصائها على الإبادة. ومنذ زمن طويل والأمة تعيش أزمات على كل المستويات، وتعاني سقوطًا حضاريًّا مهولاً على الرغم من بعض مظاهر الرقي والتقدم المادي، في معزل عن منظومة القيم والأخلاق.

ويندرج كتاب "ونحن نبني حضارتنا" للأستاذ فتح الله كولن في سياق مشروع نهضوي إسلامي متكامل، يهدف إلى انبعاث الأمة وإخراجها من مستنقعات

الانحطاط والوهن والتبعية. وقد بدأت بُذُوره تنمو ببطء منذ القرن التاسع عشر رغم ظروف الاستعمار ومخلفاته في كل الدول الإسلامية، والسياحات المستمرة في مراتع الملل والنحل، وعدد كبير من المعوقات التي تحول دون النهوض المستقيم للأمة. وجهود الأستاذ محمد فتح الله كولن تصب في مجال هذا المشروع، وتقتفي خطوات الذين سبقوه، كبديع الزمان سعيد النورسي، ومحمد إقبال، ومالك بن نبي، وغيرهم من المصلحين الذين يمتد سند إصلاحهم وتجديدهم ليصل إلى قدوتهم رسول الله ﷺ.

وتأسيس الحركة التي كولن على رأسها لمئات المدارس في أنحاء العالم، وإنشاء الصحف والمجلات والتلفزيونات والمراكز الثقافية الخاصة بها، والشركات والأعمال التجارية والمؤسسات الخيرية، وامتداد نشاطها إلى إقامة مراكز ثقافية خاصة بها في عدد كبير من دول العالم، والمؤتمرات السنوية، المتعاونة مع كبريات الجامعات العالمية من أجل دراسة الحركة وتأثيرها وجذورها الثقافية والاجتماعية.. كل هذا يصب في إطار المشروع الحضاري المتكامل الذي تُعدّ كتابات كولن جزءًا منه، وتؤسس لكيفية مواجهة تحديات الأمة، وتفرش السبل لانبعاثها وإحيائها كي تأخذ مكانها الصحيح في التوازن الدولي.

فالأمة اليوم "أمام أحد خيارين: إما الكفاح المصيري في الهمة والذي يؤدي بنا إلى الانبعاث، وإما الخلود إلى الراحة والاسترخاء الذي يعني الاستسلام للموت الأبدي". ويقين كولن القوي بانتساب الأمة إلى دينها كفيل -في اعتقاده- بالانتفاع بما تختزنه من مقومات النهوض والرقي، لأنه ما برح "مصدر عز وقوة لأتباعه الذين يؤمنون به ويحبونه بصدق، وقد أسعدهم بقدر صدق انتسابهم، ولم يوقعهم قط في خذلان دائم أو متماد. فمنذ عهد الصحابة ﷺ وحتى اليوم، كمْ عشنا بفضله في فترات مختلفة عصورًا ذهبية وأقمنا حضارات زاهية". لكن هذا كان مشروطًا بالهمة والمجاهدة، وليس "بالقعود والحلم بالكرامات الخارقة، وغض البصر عن العادات والسنن الإلهية".

حين تصبح حياة الإنسان مصبوغة بالإيمان مهتدية بيقينيات الوحي، تتلقى روحه حقيقة فريدة هي المحبة، والمحبة هي نُسْغُ الحياة الكريمة التي تسري من خلالها مجموعة من القيم كالتسامح والعدل والإخلاص.

كولن ورؤيته للانبعاث

ويصوغ الأستاذ كولن رؤيته للانبعاث من منطلق مقومين أساسيين: الإيمان والهدف. وهما ينطويان على مجموعة من الأسس والمرتكزات نجدها مبثوثة في مجموعة من المقالات التي تضمَّنها كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، كما قد نجدها في كتبه الأخرى، لأنها تتكامل فيما بينها لتقديم رؤيته المتجانسة حول قضايا البناء، من أجل أن يعيش الإنسان الحقيقة في توازن مع فطرته ومع الكون من حوله.

١- الإيمان

إن الإيمان هو المقوم الأول الذي يغرسه كل الأنبياء والمصلحين من أجل البناء الحضاري، لأنه متى استقر في النفس ووقع تجديده كل حين، أحدث قوة دافعة لتحقيق غاية وجود الإنسان في هذا الكون، فهو لا يحدث خفة وتحليقًا في الآفاق فحسب، وإنما ينعكس سلوكًا وممارسة في كل مناحي الحياة، أي يعيد إحياء الإنسان من جديد، ويحرك مداركه وأفعاله نحو الخير والحق والعدل والجمال. وقد ظل رسول الله ﷺ يركز عليه في مكة طيلة الثلاث عشرة الأولى من عمر الدعوة، ويشحن النفوس بأكبر قدر من الطاقات الإيمانية. ولما بدأ البناء العملي في المدينة، كانت الأرواح والنفوس المؤمنة حق الإيمان، مهيأة للقيام به فتعالى البناء في سنوات معدودة. وقد ظلت هذه الدعوة قائمة من أجل الانبعاث والإحياء كلما ابتعد المسلمون عن هذا المقوِّم، يكفل الله تعالى لها من يجددها في النفوس لتحياها الأمة حقيقة في ممارساتها وسلوكياتها. وهذا ما يؤكد عليه الأستاذ كولن حين يجعل الإيمان مقوم كل انبعاث وإحياء، يتفرع عنه مجموعة من الأسس

hiragate.com

والمرتكزات واللبنات لتفعيل ذلك الإيمان وتنزيله إلى الحياة. من هذه الأسس:

أ– الإنسان: لأنه المحور الذي يدور حوله الكون، وهو سيد الأرض، وعمرانها مرتبط أساسًا بمدى أهليته واستعداده. وصلاحها أو فسادها مرتبطان بصلاحه أو فساده. فالشخصية الإنسانية السوية لا تتكون إلا من خلال الإيمان الصحيح، فالإيمان يغطي "سماء أحاسيس الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تستحيل العلوم والمعارف كلها إلى العشق والاشتياق والحرص بحملة وهمة داخلية وشعور وحس داخلي، ليحاصر ذاك الإنسانَ من كل جهة، فيحوله إلى إنسان جديد قائم على محور الوجدان. فتنعكس هذه الحالُ على كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق. فتحمل عبادتُه وطاعته سماتٍ ترتسم بخطوط هذه العلاقة والرابطة وذلك العشقِ والاشتياق، وتصير مناسباتُه البشرية انعكاساتٍ لهذه اللدنيَّة. وتتمحور حملاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها حول هذه القوة الجاذبة "إلى المركز". فتتشكل فعالياته الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية وتتوسع بها، وتبرز بألوان القلب وأدائه الجميل". وحين تصبح حياة الإنسان مصبوغة بالإيمان مهتدية بيقينيات الوحي، تتلقى روحه حقيقة فريدة هي المحبة. والمحبة هي نُسْغُ الحياة الكريمة التي تسري من خلالها مجموعة من القيم كالتسامح والعدل والإخلاص.

وتزكية النفوس عند الأستاذ كولن وشحنها بالطاقات الإيمانية، تستوجب تجديدها كل مرة حتى لا تنساق وراء ما يعكر نقاءها وطهرها، لأنه لا يمكن أن "يجتمع في القلب إيمان وارتباط بالله مع الحقد والكره والغيظ، وبالأخص إذا كان القلب يحافظ على جلائه ورونقه بتجديد إيمانه وانتسابه للحق تعالى وميثاقه"، فإذا استقر ذلك، فاض القلب وتدفق حبًّا واهتمامًا وتسامحًا "إزاء المخلوقات إجلالاً للخالق، والمصنوعات إجلالاً للصانع". وبقدر تأصيل حقيقة الإيمان في العمق، تتنامى بذورها وتترعرع في الحياة وتكون مصدر الانبعاث والتطور.

ويقترن كل هذا بالحرص على العلم والتحري، والشغف بالبحث واكتساب المهارة في كل مجال، والتحفيز والتشجيع والمكافأة على ذلك، لأن المسلم ملزم بالبحث "عن كل فائدة ومصلحة حتى وإن كانت في أقصى بقاع الأرض ويطلبها أنَّى يجدها. وكما اقتبس في الماضي من علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب والزراعة والصناعة والتقنيات الأخرى أينما وجدها ثم قوَّمها وطوَّرها وأودعها أمانة للأجيال الآتية، فاليوم أيضًا يأخذ كل ما يمكن أخذه أينما وجده، وينميه ويطوره -إن استطاع- ويُودِعه أمانة للوارثين الجدد". ورغم هذه الدعوة إلى الاستفادة والانفتاح، فإن كولن يحذر من الاتكاء على المصادر الأجنبية في الأمور المتعلقة بالنظم العَقَدية والفكرية، والموضوعاتِ المرتبطة بالكتاب والسنة وبكل ما يتعلق بالرسول ﷺ وسيرته، وطرائقِ التحليل والبحث في السيرة وتاريخ الإسلام، والفن والأدب ونحوها. ذلك لأن الذين أقاموا بنيانهم الفكري على معاداة الإسلام، والناظرين إلى الإسلام وكأنه خارج الوحي السماوي، لا يُرجى منهم التصرف بحسن النية وطلب الخير للمسلمين وتمنِّي التقدم لهم. أما العلم والتكنولوجيا -وهما خارج إطار ما ذكرناه- فقد عهدناهما في أخذ وعطاء بين الأمم في الماضي، وستستمر المبادلة فيهما مستقبلاً، وتنتقل أمانة ووديعة في أيدي حائزيها. فالعلوم والتكنولوجيا ليست حكرًا لدين أو أمة". وهذا يؤدي بالباحث إلى الأساس الآخر الذي يراه كولن يتفرع عن الإيمان، وهو ما أسماه في "ونحن نبني حضارتنا" بـ"الكينونة الذاتية".

ب– الكينونة الذاتية: ويشرحها بقوله: "إن المعنى الذي نقصده من "الكينونة الذاتية"، هو إبراز هويتنا الداخلية المنسوجة من ميراث حضارتنا الذاتية وثقافتِنا الذاتية، وجعلُها "المحور" الذي ندور حوله". فالإرث الحضاري بكل مكوناته الثقافية والاجتماعية الذي تمتلكه أي أمة، يعتبر أساسًا من أسس بنائها، ولا غنى عنه إذا أرادت أن تمضي نحو المستقبل، وخاصة المكون الثقافي باعتباره "مجموعة نظم وقواعدَ تحكم التصرفات الاجتماعية

hiragate.com

والأخلاقية التي أنتجتها وأصَّلتها أمة في أثناء تاريخها الطويل، وجعلتها بمرور الزمان بعدًا من أبعاد وجودها أو حوَّلتها إلى مكتسبات في اللاشعور". وهذه الثقافة تُعَدُّ مكتسبات لا يجب النظر إليها "كشيء قديم تمامًا، بل بإضافة شيء من العمق إليها حسب متطلبات الأحوال والظروف". ويشير كولن بأن ما قامت به بعض الشعوب التي أرادت النهوض بعد كبوة وسقوط مثل اليابان وألمانيا، هو الحفاظ على ثقافتها ومكوناتها الذاتية، وتنميتها من أجل تمكين الانبعاث من النمو في أجواء صحيحة وطبيعية. كما يلفت النظر إلى خطأ وقعنا فيه كما يقول: "وهو أننا بدلاً من جعل القديم أساسًا متينًا ليقام عليه الجديد وتطوير القديم بمعطيات الجديد، فصلناهما في أكثر الأحوال إلى شريحتين ربطناهما بحقبتين منفصلتين، فأحيانًا استعدينا بعضهما على بعض، وأحيانا أخرى عارضنا بينهما فأدينا إلى حصول معضلات في الأسس". ويعتبر أن المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي التي يجب أخذها بقوة وتأصيل قيمتها ودورها في البناء المعرفي لمختلف الأفكار والمواقف والأحكام خاصة في مجال المواضيع المتعلقة بالإنسان والكون والله؛ هي الكتاب والسنة، والتي تفرعت عنهما مختلف العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك. فميراثنا الثقافي المستند إلى مصادره الأساسية يدخل في إطار الكينونة الذاتية الساعِيَة إلى القيام بوظيفة الإشعاع الحضاري، والتمكين للعودة إلى مستوى الخيرية التي وُصِفَتْ بها الأمة، وإحلال هذه المصادر في حياتنا يتم في إطار معرفي، يرقى إلى جعل العقل مناطَ التكليف وعنصر التفكير والتأمل، وهذا هو الأساس الآخر المتفرع عن الإيمان.

جـ- العقل المفضي إلى المعقول: يعتبر كولن العقل مركز حراسةٍ للروح باعتباره موجِّهًا للإنسان إلى التفكر والإدراكِ والفهمِ ومانعًا له عن القبائح وحاثًّا له على المحاسن، وعقيدة التوحيد في القرآن الكريم موافقة للعقل، لذا نجد الله تعالى يحيل كل المسائل التي يتناولها في القرآن الكريم -عدا أوامره التعبدية المتعالية- إلى العقل والمنطق والتفكر والتأمل. كما

الأمة اليوم أمام أحد خيارين، إما الكفاح المصيري في الهمة والذي يؤدي بنا إلى الانبعاث، وإما الخلود إلى الراحة والاسترخاء الذي يعني الاستسلام للموت الأبدي.

حراء

يرشد القرآن الكريم في كثير من آياته إلى المعقول الذي يربط الخلق بخالقه، ويدعو إلى التعقل والتفكر والتعمق في الإيمان والإثراء في المعرفة. فالعقل المتفكر المتأمل في النفس والكون، يؤدي إلى تفتُّح الحواس وفاعليتها لتؤدي وظيفتها الحقَّة، أما تعطيلها فهو يفضي بانتقال الإنسان من آدميته إلى صورة أخرى يفقد فيها خصوصيته ومعقوليته، وبالتالي لن يستطيع المسلم تحقيق غايته في البلاغ والنهوض بالأمة، في مجتمع موسوم بالجمود العقلي والفكري كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(الأعراف: ١٧٩).

ويفصل في مفهوم المعقول بمقارنته باللامعقول فيقول: "هو قراءة الوجود والأشياء والتفكيرُ بها وتقويمها. ومن بَعدِ التقويم ربطُها بوشائج الإيمان والمعرفة والخالق. واللامعقولُ: هو إسناد كل شيء من الأشياء وكلِّ حادثة من الحوادث إلى الأسباب المختلفة أو الطبيعة أو أمور أخرى. المعقول: هو استغناء الخالق وجودًا وتوحيدًا عن الشريك والنظير والمُعين؛ وغيرُ المعقول: هو فكر الشرك والإلحاد بصوره وأشكاله كافة. المعقول: هو ضرورة الأنبياء والرسل المرسَلين من الله إلى البشر لشرح الأشياء والحوادث وتفسيرِ الوجود وربطِه بالحقيقة المفردة؛ وغير المعقول: هو رد النبوة والرسالات الإلهية.". ويستند الأستاذ كولن في هذا الأساس على بديع الزمان النورسي، الذي حثَّ بإصرار على "قراءة كتاب الكون واستشراف آفاقه والتطلع إلى معرض الوجود. وحثُّه هذا تعبير عن المفهوم المتوارث من ممثلي المعقول: الأنبياء والأصفياء والأولياء

hiragate.com

وعلماء الإسلام. ومع استحضار اختلاف الخط حسب الزمان، كان محتوى الرسالة والطريق المتبعة واحدًا لا يتغير: التحري المستمر في الأرض والسماء، وخَضُّ الأشياء واستبطان مغازي الأشياء والأحداث، وتسليمُ كل الأشياء إلى مالكها الحقيقي. وبعد ذلك، الإحساسُ باطمئنان هذه المعقولية في الوجدان، وتحوُّلُ العلوم المؤدية إلى المعرفة: كل علم إلى نبع يُروي الذوق الروحاني. ومن ثم، تقاسُمُ مَنْ في الأرض ومَنْ في السماء تلك الحالَ الروحية.

٢– الهدف

إن الانبعاث الحضاري ينبغي أن يكون له جناحان كي يطير نحو آفاق الله: الطاقة الإيمانية وشحن النفوس بها وتثبيتها بمرتكزاتها الأساسية، ثم وضوح الرؤية والهدف، بحيث يكون للإنسان هدف محدد يريد الوصول إليه حتى لا تستنزف مجهوداته الأهداف الفرعية أو الهامشية أو تبعده عن مساره الصحيح. ويوقن فتح الله كولن بأن "المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومُثُلٌ عليا، أو وُجِدت ولم تمتلك معهما جاهزية ذهنية تناسبهما، تجدها تتحرك باستمرار لكنها لا تقطع شوطًا، لأن قطع الأشواط يتطلب -منذ البداية- تعيينَ هدف سام يوقره الوجدان ويُرغِّب فيه الانسياق الذاتي في نشوة كنشوة العبادة، ثم تفعيل منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة، ثم توجيه مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقة الكامنة لأمر ذلك الهدف السامي والغاية المنشودة". وليس هناك هدف أسمى من "إعداد أجيال مثالية مستهدِفة إنشاء أمة عظيمة"، ويستلهم هذا الهدف السامي العام من عصر النبوة فيقول: "ففي عصورِ تخبط الإنسانية في الظلمات، كان أهم مصادر القوة لتلك الثلة من المجاهدين الأوائل المنبثقة من صدر الصحراء، هو إيمانهم وغايتهم المأمولة في تفريغ إلهامات إيمانهم الفوارة في قلوبهم أبدًا إلى صدور الآخرين. فبحملة واحدة بدلوا مصير الدنيا من النحس إلى السعد، وبنفخة واحدة صاروا صوت الأمل ونَفَسه في ثلاث قارات". والمقصود بنوال الهدف هو رضا الله ﷻ. ويتفرع عن هذا الهدف السامي مجموعة من الأسس المهمة التي يرتكز عليها، منها:

أ– العمل: منذ العنوان الرئيس والأستاذ كولن يوحي بضرورة تكثيف الجهد والعمل، فكلمة "نبني" تكشف عن رغبة في جعل العمل أساسيًّا لبلوغ أهدافنا، و"المؤمن المسلم من يجعل الإيمان بهذا الدين إحياء لحياته" بالعمل لأنه يحتسب كل عمل من ضرورات السبيل لكسب رضا الحق تعالى. والعمل والبناء يجب أن يقام على الإنسان والأخلاق والتعليم والثقافة بكد وجهد، أما استكشاف طرق سهلة ورخيصة للحصول على نعم الحضارة وتقاسمها لا يجدي سوى تراوح الأمة في مكانها لا تبرحه".

ب– البيئة: إن البيئة بالنسبة للإنسان تتحدد في عنصرين رئيسيين هما: العنصر المادي؛ أي كل ما استطاع الإنسان أن يصنعه كالمسكن والملبس ووسائل النقل والأدوات والأجهزة التي يستخدمها في حياته اليومية، والعنصر المعنوي الذي يشمل عقائد الإنسان وعاداته وتقاليده وأفكاره وثقافته وكل ما تنطوي عليه نفس الإنسان من قيم وآداب وعلوم تلقائية كانت أم مكتسبة، ويقصد بها الأستاذ كولن هذا العنصر المعنوي، من هنا تعد البيئة من أهم أسس البناء الحضاري التي تنتج ثمار الأهداف. وقد أهَّل الإسلام الإنسان لإنشاء البيئة الصالحة من فكر وثقافة ونظم ومؤسسات تعليمية ومدنية لخدمة المصالح البشرية، فإذا لم تكن البيئة صالحة تثير العشق العلمي وتلهب العزائم على السعي والإنجاز وتشجع على ذلك، وإذا لم تكن منسوجة بتراث الأمة الثري فإنها لن تنتج سوى العجز والفشل والتبعية، ذلك أن "النجاحات الخارقة للعادة -المتحققة أمس واليوم- والتكوينات العالمية الكبرى، مرتبطة -إضافةً إلى عبقرية الأفراد ونبوغهم- بالبناء الاجتماعي المولدِ للعبقرية، والوسطِ المناسب لتنشئة المكتشِفين، والبيئةِ العامة الحاضنة للقابليات"، ولن يثمر أي جهد أو عمل أو عبقرية إذا لم تُيسَّر لها البيئة الملائمة المنسجمة مع مقومات الأمة الذاتية والمتوافقة مع رؤيتها ومبادئها الحضارية".

"فإن كنا الآن نفكر في إعادة بناء الذات من

hiragate.com

جديد، ونبحثُ عن أسلوبنا الذاتي الحضاري، فينبغي أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغريبة في داخلنا، والمبرمجةِ على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتَّبع -بالضرورة- سبيلاً يُمكّننا من العمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي الذاتي، وفلسفتنا الذاتية في الحياة على نسيجنا الحضاري الخاص".

جـ- الوحدة: إن الإنسان يعيش في وسط اجتماعي يتأثر به ويؤثر فيه، ولا يمكن أن ينسج علاقات مع أفراده إلا إذا كان هناك نوع من التوافق النسبي على التعايش ضمن مجموعة من القيم والمبادئ المشتركة، كما أن أي بناء لن يرتفع ويقوى إلا بتكاثف الأفراد وتضامنهم. وقد نبه الأستاذ كولن إلى هذا الأساس، وذكر أنه "إذا تكاتفت أمة بفئاتها المختلفة وأصبحت كـ"البنيان المرصوص" كما وصَفَها مفخرة الإنسانية ﷺ، وسَخَّرت قوّتَها وطاقتها في سبيل تكوين البناء الداخلي وتناغمه، فإن الحَزْن سيصير سهلاً، وسيكون من الطبيعي أن تأخذ تلك الأمة طريقها لتكون عنصرًا فاعلاً في التوازن الدولي"، وهو أمر منوط بشروط لا غنى عنها لتحقيقه، منها -أولاً- تحصين المجتمع بثقافة ذاتية مبنية على "قيم أخلاقية تتغذى وتتنفس بها، مستندة بقوة الدين المتينة، ومتخطية بالاستناد إليها كلَّ أشكال التغريب". وثانيًا ضبط الهدف الذي يدفع الناس نحو الحماس والتحرك بضوابط تحقق الانسجام والتوافق في الأمة، لأن "الهمم والحملات الفردية إنْ لم تنضبط بالحركة المشتركة ولم تنظم تنظيمًا حسنًا، ستؤدي إلى تصادم بين الأفراد لا محالة؛ فيختل النظام وتنهض كل حملة في عكس اتجاه حركة أخرى، وتُنقِص كل عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر". ويحذر من خطورة التحرك الفردي مهما كان خالص النية وصالحًا فيقول: "ولا يغترنّ أحد بحيوية الحركات ونشاطها كلاًّ على حدة مهما بلغت، إن لم ترتبط أجزاء التكامل والتوازن بمنظومة أقوى وأمتن؛ فربما لا تسند بعضها بعضًا في خط المقصود العام، فتولد أحيانًا نتائج أشد سوءًا من السكون والجمود". ويُرجع دوافع الميل إلى التحرك الفردي في الإنسان إلى الأنانية المتأصلة فيه وثقته المفرطة بنفسه، وقصور فهمه لحدود قدرته، وقصور إدراكه لمدى تأثير روح التوحد والتجمع والفعاليات المشتركة والوفاق والاتفاق في جلب العناية الإلهية".

الإيمان لا يحدث خفة وتحليقًا في الآفاق فحسب، وإنما ينعكس سلوكًا وممارسة في كل مناحي الحياة؛ يعيد إحياء الإنسان من جديد ويحرك مداركه وأفعاله نحو الخير والحق والعدل والجمال.

إن في الكتاب مجموعةً من المعالم المضيئة التي تشع بإشارات ودلالات مكتنزة بفيوضات تسري في أعماقنا، وتشحنها بطاقات تجدد خلايا تفكيرنا ومعارفنا، وتحفزها على البحث عن سبل ووسائل تبلغنا غايات التمكين لهذه الأمة. وهي جزء من منظومة فكرية تأملية لرائد الخدمة الإيمانية للأستاذ كولن، تقتفي خطى المصلحين الصالحين لتجديد الإيمان في نفوسنا ولإحياء هذه الأمة وانبعاثها؛ بتهيئة وتربية النماذج الإنسانية المجهزة بالقوى الروحية والمعنوية والمادية التي تستطيع اختيار الخير والحق والجميل والصحيح، فيشرفها الله تعالى بوراثة الأرض وبالخلود في الفردوس. واهتمام كولن بالأسئلة المحورية عن مقاصد الوجود الإنساني واستجابته للتحديات الصعبة، تنطلق من رؤية شمولية موغلة في عمق العبودية لله ﷻ ومطلب رضاه، نَسجَها بشغاف القلب ورحيق الروح، تنطلق من الواقع دون أن تتقيد به إلى آفاق الانبعاث الحضاري وتكوين المجتمعات الصالحة التي لن تتحقق إلا بإعادة صياغة الإنسان صياغة ربانية. ■

(*) جامعة عبد المالك السعدي، تطوان / المغرب.

المرجع

(1) ونحن نبني حضارتنا، لمحمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١١.

hiragate.com

د. عبد الحميد الداودي*

الشباب المتشبع بالقيم السامية والأفكار الرفيعة مصدر حياة للمجتمعات.

الموازين

نحو تفعيل دور المرأة

لا يخفى أن الأسرة -بوصفها مؤسسة إعلامية مهمة جدًّا وبوصفها مؤسسة تربوية واجتماعية- كانت موقع اهتمام الناس منذ أمد طويل، وقد ازدادت قيمة هذه المؤسسة بقدر ما نافستها مؤسسات أخرى على المستوى الإقليمي والمحلي والعالمي.

إن المتأمل في قضايا الأسرة، يلاحظ أنها قضايا عديدة لم يتوقف المفكرون والمثقفون والمصلحون لحظة من الزمن عن التفكير فيها وتجديدها وتبويئها المكانة التي نريد لها أن تكون عليها، لتحقيق أهدافها بإنجاز المشروع العظيم الذي هو "بناء الإنسان".

جناحا الأسرة

إن هذه الأسرة المكوَّنة من عناصر متعددة، ترجع في أصلها إلى عنصرين أساسين؛ الذكر والأنثى. والأنوثة والذكورة من عطاء الربوبية، وهذه العطاءات منحة إلهية تستدعي معانقة المنحة الثانية، وهي المنهج الذي يحدد لهذين العنصرين الأساسين الوجهة المطلوبة، والثبات لإنجاز الفعل الحضاري في المكان والزمان المطلوبين. ولذلك نحن نسائل كل الأفكار التي جنحت إلى إلغاء إحدى المنحتين.. نسائل هذه الفكرة من خلال إفرازات ما أنتجته الإلغاءات النمطية لإحدى المنحتين.. نسائل هذا الفكر كذلك على مستوى إلغاء الذكورة أو إلغاء الأنوثة.

إن وأد الأنثى الحضاري وجعل الغلبة والهيمنة والتأطير الشامل والأحادي للذكورة، فكر منتقد ومرفوض، وما زالت الشريعة تنكره وتعلي من شأن آخر هو شأن الإنسان. كما أن موجة إعلاء وهيمنة الأنوثة لها خطورتها، حيث ألغت جانبًا مهمًّا في الأسرة وفي التكوين الإنساني هو جانب الذكورة.

إن إحالة الذكورة على الأنوثة أو الأنوثة على الذكورة، نوع من إقصاء غير محمود خلَّف وراءه كوارث كبرى، كما أن إسناد التأطير الشامل للأسرة من قبل الذكورة أو الأنوثة، كان له جانبه الذي لا يقل فداحة من حيث عواقبه الوخيمة، ومن ثم كان لا بد من طرح سؤال جوهري ومنهجي:

ما هي المرجعية التي يمكن أن نستند إليها ولا يمكن أن تتهم بالانحياز للذكورة أو الأنوثة؟ هل من مصدر متجاوز للذكورة والأنوثة معًا لصالح مشترك بينهما هو الإنسان؟

إن الفكر العاقل والمنطق السليم يقتضي البحث عن هذه المرجعية، وتحاول البشرية في مختلف عصورها -وعلى كل مستوياتها- أن ترتقي إلى قانون وتشريع منهجي يتجاوز ضغط الأنوثة أو إكراه الذكورة، ولكنها لن تستطيع إلى ذلك سبيلاً؛ لأن الذي ينتج المؤطر لحركة الأنوثة والذكورة إما أن يكون ذكورًا فيطغى جانبهم الذكوري، وإما أن يكون مصدره مجموعة من

لم يتوقف المفكرون والمثقفون والمصلحون لحظة عن التفكير في قضايا الأسرة وتجديدها وتبويئها المكانة التي نريد لها لتحقيق أهدافها بإنجاز المشروع العظيم الذي هو "بناء الإنسان".

النساء الناشطات فيطغى جانب الأنوثة، ومن ثم ندور في حلقة مفرغة.

ولا سبيل لدى التفكير العاقل إلا طريق واحد هو إسناد الأمر إلى جهة محايدة إلى جهة راشدة فعلاً، من صلاحياتها وضع منهج يؤطر حركة العنصرين الأساسين الذكر والأنثى. و لا نملك في البحث عن هذه الجهة إلا مصدرًا واحدًا وهو الله ﷻ من خلال كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فيرتاح الإنسان ويطمئن إلى هذا المستند، ليس من باب الإيمان والعاطفة فقط، بل هذا ما يقتضيه العقل وتَتَبُع حركات التناقض الفكري عبر مختلف العصور.

إننا عندما ننادي البشرية كلها إلى أن تجعل كتاب ربها الذي خلقها، وأن تجعل توضيح النبي ﷺ المتصل بالكتاب المبين، أن تجعل ذلك هو مصدر حركتها الفكرية وإبداعها المعرفي، إننا نريد أن نضمن -والضامن هو الله تعالى دائمًا- للبشرية منهجًا تشريعيًّا، وسدادًا فكريًّا، وإطارًا معرفيًّا يصلح لحركة الإنسان في أي زمان وفي أي مكان.

بالمناسبة، هناك فكرة يطلقها بعض الغيورين على دينهم، وهي فكرة ظاهرها صحيحة ولكنها تستبطن خللاً فكريًّا في اعتقادي؛ إن قول القارئ "إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان" قول في ظاهره صحيح، ولكن الصواب والأرجح يقال "إن الإسلام يُصلح كل زمان وكل مكان".

عندما نقول الإسلام صالح لكل زمان ومكان، نجعل الزمان زمان الإنسان المتحرك ومكان الإنسان الفاعل هو الحكم وهو المرجع، ونجعل الإسلام تابعًا لهذه الحركة، وهنا طرف الخطأ المنهجي الذي وضحناه

hiragate.com

في بداية الكلام، أن الأصل هو أن يكون زمان الإنسان ومكان الإنسان تابعًا لمرجعية عُليا تؤطره، مرجعية خارج الزمان والمكان، مرجعية الوحي السديد المتمثل في الكتاب والسنة.

إن الإسلام باعتباره مصلحًا لكل زمان ومكان، مدعو الآن بلغة الإحصاءات، ولغة الأرقام، ولغة التأمل في عواقب أزمات الإنسان، إن الإسلام مدعو حضوره بقوة وبمنهجية.

أهل هذا الدين وأهل هذا الحق المبين، هم الممثلون القادرون على الحديث حديثًا إبداعيًا، حديثًا يعانق أزمات الإنسان واحتياجات الإنسان، لأجل أن ينيروا دربه من خلال التفكير المزدوج، عين تتعلق بالمرجعية حتى لا تزيغ، والعين الأخرى تتابع حركة الإنسان حتى يتم تنزيل النص الشرعي على الواقع المتحرك المعلوم.

بين القطعي والظني

العقل الإنساني المسلم مطالب أن يميز -وهو ينظر في الشريعة- في موضوعات المرأة والرجل والأسرة ومختلف القضايا ذات الصلة، أن يميز بين الثوابت اليقينية وقطعيات الدين وبين الظنيات وتنزيلات البشر للقطعيات على الواقع المتحرك، ذلك لأن عدم التمييز بين الأمرين قد يؤدي إلى خلل واضطراب في المفاهيم.

إن هناك قراءات معينة قد تمت عبر التاريخ لنصوص الدين المبثوثة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، الكثير من هذه القراءات لم تخلُ من تأثيرات الواقع الذي كان يتحرك فيه المتفاعل مع النص القرآني.

نحن نحترم علماء أمتنا ومثقفيها ونقدّر فيهم جهودهم، لكن في المقابل لسنا متعبدين لربنا إلا من خلال ما ثبت من قطعيات النصوص وما ألزم الله ورسوله به الأمة الإسلامية، خير أمة أخرجت للناس.

إن التمييز بين القطعي والظني أمر ضروري وأساسي؛ هناك آيات قرآنية لها معنى واحد ولها حكم واحد، ولا سبيل إلى القول بغيره لأنه أمر مقطوع به، فعندما نقرأ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(الروم:٢١)، نفهم أن النص القرآني يبيّن أن طبيعة الأسرة الصالحة القرآنية التي يمكن أن تسدد في حركتها وفي إبداعاتها، إنما هي الأسرة التي تنبني على المودة والرحمة، وكلما نقصت هذه المودة والرحمة كلما نقص مفعول الأسرة القرآني والإيماني، إن هذه الحقيقة مؤكدة، لأن النص القرآني هنا نص قطعي لا يحتمل غير ذلك.

وفي مثل هذا السياق، لا يمكن أن يجتهد المجتهد أو أن يفكر المفكر، ولا سبيل للعاقل المنسجم مع إيمانه ومع اعترافه بالربوبية والألوهية ومنح الربوبية والعبودية وعطاءات الألوهية، إلا أن يسلم بهذه القطعيات واليقينيات، إذ هي بمثابة الحركة الموحدة للأمة باختلاف تاريخها وجغرافيتها عبر الزمان والمكان، أمة واحدة منذ أن نزلت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾(العلق:١) إلى أن يقوم الناس لرب العالمين. الأمة الواحدة في هذا الاتجاه أمة موحدة على مستوى هذه القيمة، قيمة المودة والرحمة داخل الأسرة ما دمنا أوفياء للقرآن ولسنة رسول الله ﷺ. لكن هناك أمور أخرى، وقضايا تحتاج إلى اجتهاد من قِبل العلماء والأمة.

والذي يؤسف له من جديد، أن هناك اتجاهًا معينًا عبر تاريخنا الطويل بعد العصر الأول الذهبي-عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة الكرام- هناك اتجاه إلى التنازل عن مكتسبات تحرير الإنسان، وجعل الإنسان مناط التكليف -ذكرًا كان أم أنثى- وكون الذكر والأنثى من خصائص النوع البشري، ولا علاقة لقيمة التفاضل على هذا الأساس. نأخذ على سبيل المثال ما ورد في فضل ذهاب المرأة إلى المسجد، تصلي مع الجماعة، هناك أحاديث صحيحة تبين اشتراك المرأة مع الرجال في صلاتين عظيمتين هما صلاة العشاء وصلاة الفجر في المسجد مع الجماعة رغم الظلمة، هناك أزيد من عشرين حديث صحيح في موضوع ترغيب المرأة في الذهاب إلى المسجد، ولكن بعض الناس اعتمدوا على حديث واحد حديث أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي الذي ورد فيه "وصلاتك في بيتك خير لك"، وضحوا بعشرين حديث صحيح. هنا يتساءل العقل كيف تمت التضحية بأحاديث كثيرة عدد منها في صحيح البخاري

hiragate.com

ومسلم، لصالح حديث واحد أو حديثين آخرين؟

إن هناك اتجاهًا للتضييق على الأنثى، إننا نضيق عليها ونكبلها بالقيود، ونخفيها عن العيون، حتى جاءت أفكار وافدة، وأغرت النساء بأنهن في عالم أرحم مع الفكر الوافد، وبذلك ضيعنا الكثير من نسائنا، لأننا ضيقنا عليهن، وأبقينا على هذا الفكر مع تطور العصر، ومع ثورات القرن العشرين المتنوعة التي لم نأخذها بعين الاعتبار، مع أنها أثرت علينا وأصبحنا مسكونين بالغرب كما قال أحد المفكرين "الإسلام يسكن المستقبل والغرب يسكننا"؛ يعني الإسلام حاجة المستقبل، وأصبح مطلبًا لدى العالمين بثقافته ومشروعه، بهداياته من الكتاب والسنة، لأن البشرية ضلت ضلالاً بعيدًا وعانت، وقاست مقاساة شديدة بفعل اختيارات مدمرة للأطراف كلها.

إن الإسلام يسكن المستقبل، وإن الغرب يسكننا، الكثير منا ما زال يحلم بثقافة الغرب التي أغرت المرأة، خصوصًا بأنها في عالم الحرية وفي عالم الثورة ضد التقاليد، وأصبحت ضد كل شيء حتى ضد نفسها، مما أضاع الكثير من إيجابيات الأنوثة وخصائص الذكورة.

وهنا لابد من العودة من جديد وبهدوء وعمق وبجرأة علينا أن نسائل الكثير من آراء فقهائنا ومفكرينا، لأنها آراء أقل ما يقال فيها أنها آراء ظني، إذا كان النص حديث الآحاد ظني الورود مع كونه قطعي الدلالة مما يسمح بالاجتهاد كما هو مقرر عند علمائنا، فإنه لا يحق لأي أحد أن يفرض على الناس التوجه إلى رأي واحد فقط من الآراء المتعددة.

ثم إذا فكرنا تفكيرًا على مستوى آخر، وهو أن النص القطعي في حد ذاته إذا نزلناه على الواقع لم يعد قطعيًا، سيتبين لنا أن تنزيلك لهذا النص تطبيقك له، تطبيق حضارة معينة مجتمع معين له، لا يمكن أن يأخذ طابع القطعية لأنه عمل بشري، ممارسة بشرية، ذلك أن التدين ينتمي إلى الظنيات وهو إحدى مجالات إعمال الاجتهاد. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

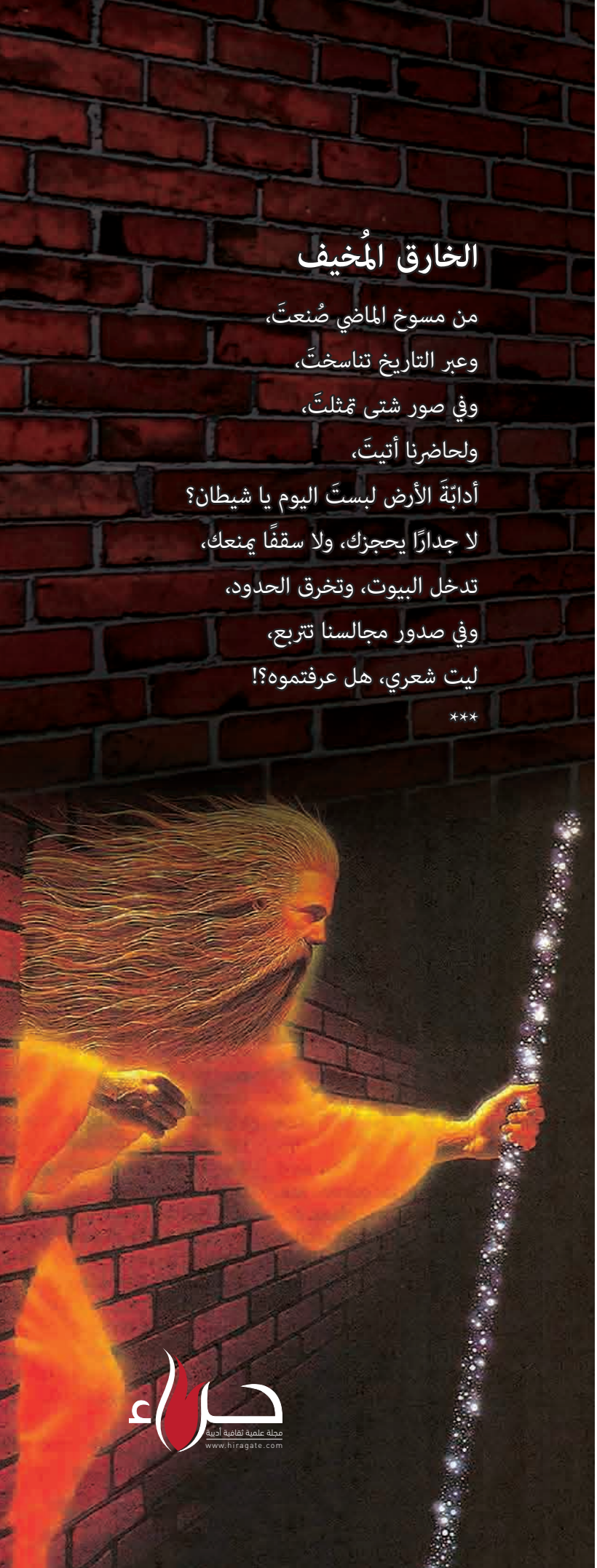

د. ناصر أحمد سنه*

الأخلاق الحيوية

لا أحد ينكر أن للعلم والبحث العلمي وتطبيقاتهما منافعُ جمة أفادت البشرية، وعادت عليها بالنفع الكبير، والخير الوفير، تواصلاً بين البشر، وتيسيرًا للمعايش، وتخفيفًا من حدة الأمراض والأوبئة، وتمكينًا من استثمار الموارد الطبيعية.

ولقد أتاحت التقنية الحيوية آمالاً عريضة لمواجهة مشاكل الجوع والفقر، وزيادة إنتاجية المحاصيل، وإنتاج نباتات مقاومة للأمراض، والآفات الحشرية، والتحسين الوراثي للثروة الحيوانية، ومشاكل المرض، مثل إنتاج الهرمونات والمضادات الحيوية، والإنزيمات والنباتات الصيدلانية والعلاج الجيني، لكن الكثير من التساؤلات الأخلاقية تفرض نفسها بقوة حول هذه التقنيات الحيوية، مما دفع المُهتمين لدراسة هذه الأخلاق، وتشريعات الأمان الحيوي وتنظيم نشر الكائنات المحوّرة وراثيًا.

بيد أن الكثيرين -وبخاصة في العقود الخمسة الأخيرة من القرن العشرين- يؤكدون أن لها إخفاقات محلية وعالمية في هذا المجال، حيث تنامت ظواهر سلبية -أو قل إذا شئت لا أخلاقية- شوهت الصورة العامة لها وللمنتسبين إليها. فما زالت الكارثة الإنسانية

الأليمة لقنبلتي "هيروشيما وناجازاكي" نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ ماثلة للعيان. وما زال مؤلمًا تلك التجارب اللاأخلاقية على البشر دون علمهم، لدراسة أمراض واختبار عقاقير.

كما أنه استجدت مسائل تحتاج لمرجعية أخلاقية لأنها ستؤثر على الإنسانية تأثيرًا كبيرًا، مثل توظيف واستخدامات التقانة (Technology) التي أنتجت القنابل الذرية والهيدروجينية، والحدود الضابطة للهندسة الوراثية، والتقانة الحيوية (Biotechnology) التي انطلقت من عقالها، لتغيير التركيب الوراثي للكائنات الحية والمحاصيل الزراعية، وإنتاج القنابل البيولوجية والاستنساخ البشري، وعواقب استخدامات نتائج الخريطة الوراثية البشرية (الجينوم البشري) والأساس الوارثي للذكاء، ونقل وزراعة الأعضاء البشرية، وضوابط إجراء التجارب على البشر والحيوانات، وقتل الرحمة، وقتل الأجنة المشوهة، واحترار الكرة الأرضية وتلويث البيئة، وخطورة ذلك على كوكبنا المنهك. لذا باتت الحاجة ملحة لمنهج أخلاقي يسترشد به العلم والعلماء، ويُمكِّن من التعامل مع التطورات العلمية والبحثية والتقنية الهائلة، ويمثل سياجًا يحول دون انفلاتها حتى لا يكون العلم "لعنة" على البشرية، بل يظل "نعمة" لا "نقمة".

مضمار الأخلاق الحيوية

تركز الأخلاق الحيوية على معرفة العالم الطبيعي، وتبتغي شكلاً جديدًا من الحكمة لضمان بقاء الجنس البشري واستمرار حياته الكريمة وتحسين العالم المتحضر، وسد الفجوة بين العلوم الطبيعية والإنسانيات والعناصر الاجتماعية. ويؤكد "بوتر": "إذا كان لدينا ثقافتان غير مُتحاورتين (العلم وعلوم الإنسان)، فيجب بناء جسر بينهما للمستقبل عبر الأخلاق الحيوية، فهذان الفرعان ينبغي أن يلتقيا أخلاقيًا. ولم يعد بالإمكان دراسة الخيارات الطبية دون تبني نظرة بيئية ومجتمعية عالمية. فصحة الإنسان ترتبط إرتباطًا مباشرًا ووثيقًا بسلامة بيئته، كما يجب التغلب على الأزمات البيئية لينجح النظام الاقتصادي العالمي. فلعقود تم التعامل مع البيئة، على أساس المنفعة المادية واستغلال

تركز الأخلاق الحيوية على معرفة العالم الطبيعي، وتبتغي شكلاً جديدًا من الحكمة لضمان بقاء الجنس البشري واستمرار حياته الكريمة وتحسين العالم المتحضر، وسد الفجوة بين العلوم الطبيعية والإنسانيات والعناصر الاجتماعية.

الموارد الطبيعية، دون التزام أخلاقي أو حتى الاعتراف بقيمتها وتوازناتها. فما يعانيه العالم من كوارث، ناجم -بالأساس- من سوء تصرف البشر مع الطبيعة، وغياب قيم الرقابة والمحاسبة والتواضع والتراحم؛ إذ لم يصحب التطور العلمي والتقني زيادة في الوعى الأخلاقي الحيوي والبيئي المناسب لترويض أطماع البشرية التي أدت لزيادة التصحر، ولارتفاع كبير في نسب التلوث البيئي، واختلال الأمن الغذائي.

الأخلاق الحيوية البيئية، أشمل وأعم من الأخلاق الطبية، حيث تهتم بالأمور على المدى البعيد، وما ينبغي عمله، الحفاظ على مجال حيوي يمكن للبشرية العيش فيه. أما الأخلاقيات الطبية فينحصر اهتمامها على المدى القصير على قضايا، مثل زراعة الأعضاء، وعلم الأجنة والهندسة الوراثية، والاستنساخ البشري، وإطالة أمد الحياة، والقتل الرحيم.. وفي تقنيات الجينوم البشري تتولد إشكاليات أخلاقية: ما مدى تحديد ملكية المعلومات المتولدة من دراسات جينات إنسان ما؟ وهل يملكها صاحبها أم المؤسسة العلمية التي قامت بدراستها، أو الجهة التي موَّلتها، أو الدولة التي سمحت قوانينها بإجرائها؟ ومن يحق له إعطاء الموافقة لإجراء بحث/نتائج معلومات اختبار جينومي؟ ولقد خصص المشروع الأمريكي للمادة الوراثية البشرية نحو ٣٪ من ميزانيته، ليأخذ في اعتباره مثل هذه المسائل الأخلاقية.

ولقد حدد تقرير لمنظمة اليونسكو في ٢٠٠٣، أسبابًا جوهرية تؤكد على أهمية الأخلاق الحيوية، حيث انعدمت الثقة بالبحث العلمي والتقني وحُمِّلتا مسؤولية الفوضى التقنية والاجتماعية والاقتصادية، وصار التمييز بين ما هو صوابٌ وما هو خطأ في البحث العلمي،

hiragate.com

وكذلك التمييز بين العلم والعلماء والمجتمع وعقد العلاقة بينهما، ومن ثم الدور الذي يمكن أن يقوم به تعليم الأخلاقيات في التنمية المستدامة، أمر صعبٌ للغاية.

مشكلة الحتمية التقنية

ساد اعتقاد أن الابتكار في جوهره مفيد ولا بد من دفع التكنولوجيا لأبعد الحدود، حيث قيل: "اختراعاتنا تغيّر العالَم، لكن هذا العالم الذي تَغيَّر، يغيّرنا". لذا تأثرت التقنيات في معظم مراحلها بالآراء والتقديرات الشخصية البحتة، وصُفق لها إذا حققت ربحًا ماديًّا على المدى القصير، حتى وإنْ سبَّبت مشكلات خطيرة على المدى البعيد؛ مثل مركّبات "الكلوروفلوروكربون" التي تسهم في تآكل طبقة الأوزون، وكانت تُستخدم في أجهزة التبريد. إن هذا الأمر يشمل عدم استشراف الأبعاد الأخلاقية الشاملة للتطورات التقنية، وتم التركيز على التَوَجُّه التكنوقراطي الذي يراعي فقط تحليل التكلفة والفائدة، والعوامل التي يمكن قياسها كميًّا/تسوقيًّا، أمّا الأمور غير الملموسة كصحة المجتمعات والبيئات، فغالبًا ما يتم تجاهلها.

ولا يزال الكثير من القضايا الأساسية المتعلقة بالصواب والخطأ قيد نزاع شديد، وتتضمن هذه القضايا أسئلة من قبيل متى بدأت الحياة، ومتى تنتهي؟ وما الذي يشكِّل كرامة الإنسان؟ وكيف يمكن تحديد نطاق مسؤولية الإنسان عن البيئة العالمية والأجيال القادمة؟ وفي بعض الأحيان تسفر المناقشات الأخلاقية المكثفة ليس عن اتفاق في الآراء فقط، وإنما عن عكس ذلك أيضًا. فعلى سبيل المثال، عقب سنوات من دراسة ومناقشة الكارثة الصناعية التي وقعت في "بوبال" في الهند عام ١٩٨٤، عندما تسربت غازات سامة من مصنع لمبيدات حشرية، والتي أسفرت عن مقتل الآلاف، وما زالت النقاشات تقاوم بشدة أي سرد منطقيٍ لأسباب ونتائج هذا الأمر؛ بسبب نزاعات سياسية وقانونية وقضائية معقدة. وفي أحيان أخرى، يمكن أن تسفر المشاورات عن تَوافق وتباين متعدد التوجُّه، مثل اعتماد سياسات مختلفة متعلقة بأبحاث الخلايا الجذعية الجنينية البشرية، من قِبَل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وألمانيا.

إن التكنولوجيا تحدِّد الإحساس بما هو ممكن، ويمكن أن تعزِّز القدرات الطبيعية أو تُضعِفها، بل ويمكنها تغيير حجم الدماغ ووظيفته. إن الخيارات التكنولوجية تمثل انعكاسًا لما عليه البشر، ونقطة انطلاق لما سنكون عليه، ويمكن أن تعيد تعريفَ ما يعنيه أن تكون "إنسانًا". وبناءً على العنصر الأكثر قيمة وأهمية المتمثل في سلطة المعرفة، فإن بعض التقنيات ستخدم مصالح البعض جيدًا، وقد تضر البعض الآخر كثيرًا. ولا شك أن الأخلاق ومجالها الحيوي (المجتمعات) عنصر أساس في هذا المضمار. وحتى إذا كان الخطاب الأخلاقي المثالي بعيد المنال، فلا يزال بالإمكان تحقيق نتائج أفضل مما تم التوصل إليه. وتمتد آثار العديد من وسائل التكنولوجيا -في مجالات مثل إنتاج الطاقة أو علم الروبوتات أو إدارة المعرفة- إلى ما هو أبعد من مشغِّليها أو المستفيدين منها، ولذا مِن الضروري إيجاد طريقة لطلب آراء المجموعات المتضررة، وأَخْذها بعين الاعتبار.

إذا كان مصطلح "الأخلاق الحيوية" حديث النشأة نسبيًّا، فإنه في المقابل عريق المفهوم والممارسة. إن الأخلاق تُروض التقنية وتصوغها من جديد، ولقد مضى عصر الثنائية المفتعلة بين العلم والدين وأخلاقه، وبات العلم في عودته للإيمان يستلهم منه الأخلاق لحمايته من الجنوح والانفلات فيصبح علمًا بلا تدمير.

إن حضارة الإسلام وتعاليمها تقوم على شقين لا انفصام بينهما: التقوى والتقانة. لذا فضوابطها الأخلاقية والقيمية قادرة على رأب الصدع في أخلاقيات العلم والبحث العلمي، لتكون على بصيرة وحكمة من أمرها. كما أن النهوض الحضاري الإسلامي وريادته آفاق العلم والبحث العلمي، متزامن مع تفعيل قيم الإسلام ونظرته للحياة والكون والإنسان، وما يتوافق معها في الشرائع الأخرى، كفيل بخلق سياج أخلاقي عام يلف الإنسانية ومجتمعاتها، ويشمل العلماء والباحثين واضعًا لهم الطريق الذي يضبط عملهم، ليبقى العلم وتقنياته نعمة للبشرية ومصدرًا للخير والهناء لا للزبد والفناء.

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

قضايا فكرية

د. العطري بن عزوز*

الفن والعلم والتأصيل لحقيقة التدين

ظاهرة التدين هي استجابة لضرورة دينية وبيولوجية وعاطفية وعقلية، لا يمكن الاستغناء عنها لإثبات إنسانية الإنسان المتطور المتحضر الذي يتحلى بالقيم والأخلاق الراقية التي تؤهله إلى أن يكون سيد المخلوقات، فالتدين الحق يجعله يلتزم بالتوفيق بين العلاقات الثلاث الضرورية: علاقته بخالقه، وعلاقته بالكون، وعلاقته بنفسه، بطريقة منظمة ومنسجمة ومتوازنة. فالاستعانة بالله واستمداد العون منه ضرورة لنجاح الإنسان في مهمته في الأرض، وهي بناء الحضارة والعمران وعبادة الله تعالى.

فإذا كنا قد اتفقنا على أن التدين ضرورة طبيعية وهامة لكل إنسان، إذن فما شكل التدين المطلوب لتحقيق هذه الغاية؟ وما علاقة ذلك بالفن والعلم؟ وكيف يمكن أن نؤصل لقيام الإنسان بمهمة الاستخلاف كما أرادها الله تعالى لعباده؟

الفن والعلم

الفن والعلم مدلولان يحققان غاية واحدة وهي بناء حضارة الإنسان، والإيمان هو الموجه لمسارهما وتحقيق غايتهما. فالفن هو تلك المهارات الإنسانية التي يستوحي معالمها من الكون الجميل الذي أودعه الخالق ﷻ بديع السماوات والأرض، ويحاول الإنسان أن يسقطهما على حياته لتبدو جميلة ورائعة، حيث يتحقق التكامل المعرفي والفني والديني في حياته وهو مراد الله تعالى من الإنسان. فالفنون التي ظهرت في الحضارة الإسلامية قدمت نمطًا جديدًا للإنسانية، حيث ارتبطت بالقيم الأخلاقية والدينية فظهر الإبداع في المصحف والمسجد والبنايات والأواني وغيرها، كما ارتبط الفن بالعلوم والمعارف على أساس أن الإبداع العلمي يبدأ برؤية فنية للظاهرة الطبيعية والفيزيائية والرياضية، فالعلم والفن لهما المنطلق نفسه وهو التفكير في الكون الجميل، والله تعالى هو منطلق الجمال، وهو خالق الكون، فالفنان يحب أن يتمثل صفات الخالق المبدع، فالفن يرتبط بالتفكير والإبداع والاتقان في الصنعة، وهكذا ينبغي أن تكون حياة الإنسان. فالإسلام ينظر للفن على أنه من مقاصد العلم والدين، فالفن هو التطبيق العملي للنظريات العلمية بالوسائل التي تحققها، وهو يطلق على ما يساوي الصنعة والمهارة. والفنون لازمة للإنسان لأنها ضرورة لحياة الإنسان من حيث هو إنسان، فعمر الفن يوشك أن يكون هو عمر الإنسان، يلازمه منذ أن كان يعلو ويهبط معه وبه.

علاقة الدين بالفن

علاقة الدين بالفن كعلاقة العقل بالروح، كلاهما يحقق لنا قاسمًا مشتركًا نستدل به على الوجود وعلى جمالية الكون البديع. فالفن هو المعيار الذي نقوي به ملكة الإدراك والتميز، ونعرف به المعنى الحقيقي لهذا الوجود ومقاصده التي تصب في الدين، وإذا غاب هذا

المعيار في حس الإنسان، غاب عنه المعنى الجمالي للحياة وكذلك المعنى الصحيح لمقاصد الدين، وحدث قصور في الفهم وسطحية في التدين، وقد يؤدي ذلك إلى التطرف والغلو والجفاء المعرفي والحضاري والفكري للمسلم الذي لا يولي اهتمامًا لهذا المعيار الهام في حياة الإنسان.

والدين الإسلامي لم يأت ليحرم الفن، وإنما أراد أن يبعد عنه المظاهر التي تخالف العقيدة الإسلامية وتنافي الأخلاق وما هو خارج عن المنهج؛ ولذلك نجد المساجد مزخرفة ومزينة بالآيات القرآنية بأشكال جميلة تضفي على بيوت الله شيئًا من الجمال الذي يريح المتعبد، لكن لا نجد فيها صورًا لأشكال الإنسان أو الحيوان أو تماثيل كالتي نجدها في المعابد والصوامع والكنائس.

تعلم الفنون يعمل على الترقي في فهم حقيقة الدين، وبناء مقومات الحضارة بناءً رصينًا يساير تطلع الإنسانية لها، وبالتالي تحض بالقبول والإقبال عليها، وتعمل على تقوية ملكة الفهم الواعي للوجود الذي تتفاعل فيه الإنسانية مهما اختلفت وتنوعت.

والنظرة الفنية للكون نابعة من القرآن الكريم الذي يصور لنا الوجود تصويرًا فنيًّا وجماليًّا، ويدعو إلى التفكر فيه من أجل الوقوف على إبداع الخالق في خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾(النحل:٦). وهذه الصّور الجمالية في الكون البديع تردّدت في عدّة آيات، منها قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾(الملك٣-٥)، فهذا التناسقُ في الخَلق، والإبداع في الصنع، والتنوع في الألوان، يعد مظهرًا أصيلاً للجمال، وتزيين السماء بالنجوم يجعل الجمال هدفًا في الخلق.

غياب الفن عن الساحة الإسلامية اليوم

غياب الفن عن الساحة الإسلامية، أدى إلى غياب الرؤية الواضحة للحياة ولفهم الدين كما فهمه الأوائل الذين بنوا حضارة من أعظم الحضارات في العالم، وغيابه أدى إلى التوقف عن النمو والتطور حيث استوى الوجود والعدم. فالأمة الإسلامية اليوم لا وجود لها على المستوى العلمي والمعرفي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، سوى كونها أمة مستهلكة لما ينتجه الآخر. فنلاحظ في واقع المجتمع الإسلامي غياب شبه كلي للفن في الحياة، إما بسبب الفتاوى التي تحرم الفن والتي تصدر من بعض المفتين الذين يجهلون حقيقة الفن ونظرة الدين للفن، وإما عدم اهتمام المجتمع الإسلامي بهذا المعيار الهام في حياته، وإما لأسباب أخرى يفترض البحث عنها ومعالجتها. فغياب الفنون هو غياب للملكات والإبداع والرقي والنهضة وتأسيس للعجز، وهذا ما نشاهده في المباني التي نشيدها في أيامنا هذه، حيث تفتقد للإتقان والذوق الفني الرفيع، وأكثر من هذا أنها تفتقد حتى إلى المعايير التقنية والعلمية للمواد المصنوعة منها، مما يفقدها الجودة والنوعية، وبالتالي تنعكس هذه الحالة على الجانب النفسي والعقلي والفكري وتدهور الحالة الاقتصادية والثقافية وغيرها. ومعنى هذا أن عدم الاهتمام بالجانب الفني يؤدي إلى انهيار كل الجوانب الأخرى من حياة الإنسان، وبالتالي نصل إلى حالة من التخلف والتأخر الحضاري والمعرفي.

ضرورة الفن للمتدين المؤمن

القرآن الكريم دائمًا يربط الفكر والأعمال الصالحة؛ بالإيمان الصادق. فالإيمان هو قطب الرحى في الدين، وله دور مركزي في ممارسة التدين الحق، ومجالات الفن الإسلامي هي كل مجالات الوجود مرسومة من خلال النفس المؤمنة المنفتحة بالإيمان. ولا نقصد بالإيمان، التصديق القلبي بأركانه الستة فحسب، وإنما هو أيضًا تلك الممارسة الفكرية والعملية والفنية التي تنسجم مع التصديق القلبي، ونعني بذلك أنه لا يمكن الفصل بين التدين والتفكير العقلي والفني الذي تدعو إليه الآيات القرآنية، فلا يمكن للمتدين أن يكون إمعة يقلد كل ما يسمعه أو يقرأه أو يراه، فالإنسان ليس حيوانًا بالغريزة، وإنما هو إنسان بالفطرة.

فالقلب هو مصدر تذوق الإيمان ومصدر التفكير

hiragate.com

والتأمل ومصدر التدين الحق، والنبي ﷺ يقول: "لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم" (رواه أبو داود).

فكل محاولة لتأصيل التدين الحق يجب أن تنطلق من الفهم الصحيح لنصوص القرآن والسنة ومقاصدهما، مع الالتزام بنظرية التوسط والاعتدال واليسر، فلا إفراط ولا تفريط، فعن عائشة ﵂ قالت: "ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تُنتَهك حرمة الله فينتقمُ لله بها" (رواه مسلم).

فالتدين الحق هو الذي يبنى على العلم والفن والاستدلال والذوق لما هو جميل. فالقرآن يتحدث عن الجمال والفن الحسي، ويرشدنا إلى الجمال المعنوي النفسي وهو الغاية القصوى من الخلق بالتمسك بمنهج الدين وعبادة الله حق العبادة، وضرْب الأمثال الموجودة في ثنايا آيات الله القرآنية، إنما المقصودة منها توسيع خيال الإنسان لكي يبدع في ممارسته المهنية في حياته اليومية، فيبدع في الصنعة والإتقان. فالإنسان الذي يمارس الفن في حياته، يتذوق حلاوة الإيمان ويدرك معنى الموجودات.

وغياب الفن أدى إلى ظهور التدين المغشوش الذي ينبع من نظرة بائسة يائسة مكفرة أو محرمة لكل ما هو جميل في هذا الوجود، ظنًا منهم أنه يتنافى مع الدين. فهذه النظرة الواهمة المركبة، انعكست سلبًا على الصورة الجميلة الواضحة للدين الإسلامي، فهؤلاء لا يدركون بأن الدين لا يتجزأ، فهو صورة كاملة لمعنى الوجود الجميل، وهذه الصورة الكاملة لا يمكن تجزئتها وتفريق محتواها. ولكي نفهم هذا المعنى، علينا تأمل قصة موسى والخضر عليهما السلام، التي توضح لنا في النهاية قصور الفهم لدى الإنسان الذي يحكم على الأشياء، كما تبين أن هناك حكمة ما وراء علم البشر القاصر، لأن الحكم على الأشياء من البشر يأتي دائمًا ناقصًا ومتقطع عن الصورة المتكاملة.

فالفن الراقي والإيمان الصادق، يلتقيان عند مصب واحد وهو الجمال الذي انعكس نوره في أرجاء الكون، وطلب منا البحث فيه لإدراك مصدر النور والجمال، ومن ثم يحس الإنسان بحلاوة الإيمان. فضرورة الفن للمتدين تحفز على الإبداع في شتى المجالات وتدفع بالشخص إلى البحث عن آفاق جديدة تقوي ملكة البحث، وتعين على الفهم والإدراك الحقيقي لمعاني الأشياء ومقاصدها، لأن الفن يعمل على الإحاطة بالشيء وفهم أبعاده، كما يساعد المتدين المؤمن على الارتقاء واتساع مجال الخيال والتميز.

والفن يخلِّص المؤمن من الوصاية المولدة للضعف والعجز الفكري، والتي تقصر مفهوم التدين عند فئة معينة توجه المتدين حسب مرادها، وهذا ما حذر منه الأستاذ فتح الله كولن بقوله: "ليُعلَم جيدًا أن الدين لا يُحصر على فئة قطعًا. فلا يمكن في أي وقت من الأوقات أن يكون الدين ملك فئة معينة، حيث هو ملك جميع من ينتسب إليه، إذ إن كل فرد ذو علاقة ورابطة مع ربه. فلا يمكن إزالة هذه الرابطة بين العبد وربه كما لا يمكن الحيلولة دون نصرتهم لدينهم ودفاعهم الشخصي عنه. إن حصر الخدمات الدينية على فئة خاصة، غفلة عظيمة وخطأ جسيم لا يُغتفر. ولن ننجو مما نحن فيه من وضع أليم، إلا بالخلاص من هذه الغفلة، وعندها يجد الفرج إلينا طريقه. وبخلاف هذا نكون مانعي ظهور الدين".

وهكذا، بهذه المفاهيم يمكن للمتدين أن ينتفع بالفن والعلم، حيث يكسب بهما الوعي بذاته انطلاقًا من قدراته وملكاته الفردية. وفي النهاية ستكون عبادة المتدين منظمة ومنسقة ومتقنة بمعنى خاشعة لله سليمة من الأخطاء. ■

(*) باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر.

المراجع

(١) أثر العقيدة في منهج الفن الإسلامي، لمصطفى عبده، دار الشروق، بيروت ١٩٩٠.

(٢) منهج الفن الإسلامي، لمحمد قطب، دار الشروق،ط٦، بيروت ١٩٨٣.

(٣) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، لمحمد فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٨.

hiragate.com

أديب إبراهيم الدباغ*

مدارس كونية الآفاق

تتعلم تلامذة "مدارس الخدمة" المنتشرة في العديد من أقطار العالم، والمعتمدة أفكارَ الأستاذ "فتح الله كولن" في التربية والتعليم.. يتعلم هؤلاء التلاميذ أولَ ما يتعلمون أنَّ للكون عقلاً، وأنَّ لهذا العقل أفكارًا، وأنه يومض بهذه الأفكار ومضات متتالية، ويبرق بروقًا دائمات، ويومئ إيماءات، ويُشَفِّر شفرات، فتتلقفها العقول البشرية الذكية وتنكبُّ على حَلِّ رموزها وفكِّ أسرارها، والتعرُّف على معانيها ومقاصدها.. فتتعلم منها وتأخذ عنها، وتستولد منها الأفكار، وتنشئ العلوم وتقيم المدنيات والحضارات.

فكل الحضارات التي نشأت فوق هذه الأرض إنما هي نتاج تفاعل جدلي بين عقل الإنسان وعقل الكون، فنبضات هذا العقل تخترق أقطار النفس البشرية وأغوارها الروحية، وكأنه يدعونا ليطلعنا على صور متتابعة لا ينقطع تتابعها من قوة الله تعالى وعظمته وأسراره في خلقه.

فمن أهم مهام هذه المدارس الفريدة في نوعها، بناء جسور فكرية دائمة بين عقل التلميذ وعقل الكون، من خلال ما يتلقاه من مختلف العلوم ذات الجذور الكونية الطبيعية، وهي تنشئ في التلميذ بصيرة نافذة وعقلاً بحثيًّا استقرائيًّا واسع الإدراك، شمولي الاستيعاب، ليكون في وسعه فتح أغلاق الخزائن في الكون والطبيعة والإنسان، والولوج إلى أسرار دفائنها ودخائل تراكيبها وبواطن أبنيتها.

فكما تنشئ هذه المدارس في تلامذتها عقولاً كونية، غير أنها في الوقت نفسه تعمل على تعريف التلميذ على ما يحتويه من قوى نائمة تشكل الجانب الأعظم من قواه الفكرية والنفسية، فتعمل على إيقاظها وتفعيلها واستخدامها مع قواه الظاهرة في بناء مستقبله الثقافي والفكري. فقد بقينا زمنًا طويلاً نعاني من تسلط العقول الكبيرة على ما في عقولنا من ضعف وخلل، ومن هنا كان بناء العقول الكبيرة والقوية من أولويات هذه المدارس، بحيث تمنع أي تسلط يقع عليها أيًّا كان.

ومما يحمد لهذه المدارس، سعيها إلى دحض ما ترسب في قرارة تلامذتنا من شعور بالنقص والدونية إزاء الإمكانات العقلية التي يمتلكها تلامذة الغرب، وهو

وهُمْ تحاول هذه المدارس إبطاله.

فالعقل البشري -كما ترى هذه المدارس- مُصَمَّمٌ من قبل الخالق جل شأنه، لاستقبال الإشارات الماورائية الحافزة للبحث عن حقائق الأشياء وسبر أغوار الظواهر الوجودية وإمعان النظر فيها. الأمر الذي ينتهي في التلميذ إلى بناء بصيرة نافذة وعقل بحثي استقرائي واسع الإدراك، شمولي الاستيعاب، ليمارس هذه الاستعدادات الذهنية في أبحاثه العلمية والفكرية في مغاليق الكون والطبيعة والإنسان.

فتلميذ هذه المدارس سيلمس وهو يرتقي من صَفٍّ إلى صفٍّ فوقه، أن العقل الذي في رأسه له من الأبعاد والفضاءات مثل أبعاد الكون وفضاءاته. وأنه بقدر امتداد عقله في الأشياء تتكشف له هذه الأبعاد والفضاءات أطباقًا من فوق أطباق، فلا يدري ومن حقه أن يتساءل: هل الكون خُلِق على مثال العقل، أم العقل خلق على مثال الكون؟! أو أنهما ينبوعان عظيمان تتدفق منهما الأشياء وإليهما تعود؟!

وإن مما يلفت النظر ويثير العجب في خريج هذه المدارس، هو هذا التوافق والتواؤم بين ما يمتلكه من روحية عالية مرهفة، وعلمية آفاقية جامعة. فنحن هنا بإزاء روحية علمية، أو إن شئت قلتَ علمية روحية، وهذا النموذج من خريجي هذه المدارس يوجِّه صفعة قوية لمَنْ يرى أن "الروح" و"العلم" نقيضان لا يلتقيان ولا يجتمعان في إهاب إنسان.

فالروحية العلمية، أو العلمية الروحية، تتجسَّم أحسنَ ما تتجسم في تلامذة "مدراس الخدمة" كما يؤكد ذلك جَمٌّ غفير مِمَّنْ شاهد عن قرب هؤلاء التلاميذ في مدارسهم أو بيوتهم أو في أماكن أعمالهم.

وهذه "الروحية العلمية" هي أُسُّ أساس فلسفة "كولن" في التربية والتعليم. وهي المقصد الأساس من إنشاء هذه المدارس. فخريج هذه المدارس كبير الثقة بنفسه، لا يشكو من كآبة الانفصام عن عصره. فهو في مزاج تفاؤلي دائم بالحياة يجعله يحياها بأبعادها كلها دون أي إحساس بالتخلف عن روح عصره.

إن أسوأ شيء تعاني منه شعوبنا اليوم، هو ضعف شعورها بحقيقة وجودها، أو بالأحرى بأحقية هذا الوجود، فهي موجودة وغير موجودة، حاضرة وغائبة في الوقت

يتعلم تلامذة مدارس الخدمة أنَّ للكون عقلاً، وأنَّ لهذا العقل أفكارًا، وأنه يومض بهذه الأفكار ومضات متتالية، ويُشَفِّر شفرات فتتلقفها العقول البشرية الذكية وتنكبُّ على حَلِّ رموزها وفكِّ أسرارها والتعرُّف على معانيها ومقاصدها.

نفسه، حتى إننا لم نَرَ جدوى من التفكير في الحفاظ على هذا الوجود الشبحي، ولم نجد دافعًا قويًّا يدفعنا إليه، فتركنا للآخرين مهمة التفكير لنا، وانطوينا على أنفسنا في انكفاء إحباطي نعاني النفي خارج دائرة العقل، وقالوا لنا: أنتم لا تحسنون التفكير فدعونا نفكر لكم، ففكروا لنا كما يريدون لنا أن نكون، لا كما نريد نحن أن نكون. وأجلسونا على مقاعد التعلم كتلامذة قُصَّر نتلقى منهم الأفكار التي يريدون زرعها في عقولنا، وربطوا هذه العقول بأنظمة تكرس لمزيد من الخمول العقلي والإحباط النفسي.

لقد أرادوا لنا أن نمارس عملية انفصال رهيب عن تاريخنا الروحي، وعطلوا قوانا الإدراكية بالماضي والمستقبل، ومارسوا معنا إرهابًا فكريًّا جعلنا نخاف من وجودنا الأعلى، وجمَّدوا فينا الإحساس بالعقل الجمعي الذي نؤوي إليه في الملمات، وملأوا عقولنا بفراغات هائلة نظل نعوم فيها فلا نصل بعد الجهد الجهيد إلى شيء، وظل الرعب من الفراغ المجهول يقض مضاجعنا، ويقذف بنا على شفا جرف حاد من هاوية الهلاك، فكأن حصيلة هذا كله خيالاً مريضًا تعكسه عقلية متعبة منهوكة تعاني الحيرة والضلال في شعاب العقول.

لقد حملنا جوعنا الروحي وذهبنا في أبعاد الأرض، ورجعنا من هذه الرحلة المشؤومة بمزيد من جوع الروح، وبمزيد من ضلال العقل.

إننا -ونحن نعيش هذه الإحباطات- لنتجه بآمالنا إلى هذه المدارس النورانية، وإلى خريجيها من أصحاب القلوب السماوية والعقول الكونية، ليقودوا سفينة الحياة في هذا الخضمّ الطامي من الأفكار والمعتقدات، وإننا على ثقة بأنهم سيكونون دائمًا عند حسن الظن، وحسن الأمل والرجاء. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

hiragate.com

شعر

د. حسن الأمراني*

الطريق إلى المدينة

لم تّسْـــــبِنا شفـةٌ ولا أحـداقُ ... فعلام تعصف بالـــدَّم الأشواقُ؟

لم ينطـــفئ جُـرْحٌ سـوى لوريشه ... فدمي على كلّ الـــدروب مراقُ

والقلْبُ مقصوصُ الجنـاح مقيّدٌ ... لكنّـه مِـنْ حبّـه خفَّـــــاقُ

هو من تولّهـت القلوبُ بحسنـه ... وتدلّهتْ بجمـاله الأعـــــلاقُ

ريّانُ هذا الـــحبُّ لكنَّ الهـوى ... أسيـافه تعْنـو لـــــها الأعنـاقُ

من يحمل القلْب الشَّريد إلى ثرى ... من تستثار بذكـــــره الأعمـاقُ؟

يا ليتني كنـــــت الترابَ لنعْلـه ... فأفوز، إذ نعل الحبيـــب بُـراقُ

(*) شاعر وأديب مغربي.

حنين خلدون السقاف*

من يوميات خلية

هل تساءلت يومًا -عزيزي الإنسان- ما الذي يحدث في داخلك؟ كيف تتحرك وتتنفس؟ لماذا تحتاج إلى الطعام والأوكسجين؟ ما الذي يحصل عندما تتألم؟ كل هذه الأسئلة وأكثر قد تجول في عقلك باحثةً عن جواب، منقّبة عن تفسير علمي من عالم أو طبيب.

دع عنك الحيرة، ولتأذن لي بأن أسرد لك قصة قصيرة تفهم من خلالها ما يجري بداخل جسمك. ولكن قبل ذلك أريد أن أعرّفك بنفسي: أنا الخلية، أساس كل حي، وأولى أحرف لغة الحياة، متناهية في الصغر، بالغة الأهمية، فوجودي أو غيابي يؤثر

بشكل كبير على سير حياتكم معاشر الكائنات الحية، قد لا تستطيعون رؤيتي أو تتجاهلوني عن غير قصد، لكنني موجودة وحية أتنفس في دواخلكم وأكوّن ذواتكم.

أما يومي فيبدأ من لحظة تكويني، وينتهي بعد ثلاثة أشهر من العمل الدؤوب في معامل جسم الإنسان. وحتى أقوم بعملي على أكمل وجه، عليّ أن أحصل على الطاقة. تُرى كيف أستطيع الحصول على الطاقة؟ مِن خلال الطعام؛ فأنا أفتح فمي لحظة وصول الغذاء، وأقوم بإرساله إلى "الميتوكيندريا" التي هي جزء منّي، عضو بداخلي يشبه حبة الفاصولياء، تقوم بتحويل الغذاء إلى مواد كيميائية أحتاجها في يومياتي لتزودني بالطاقة، وحتى تتمكن "الميتوكيندريا" من العمل واستخراج الطاقة فإنها تحتاج إلى الأوكسجين.

في كثير من الأحيان ترتطمون أنتم معاشر البشر بالطاولات أو أية أجسام أخرى، وتشعرون نتيجة لذلك بالألم، أو قد تتأوّهون من فرط الألم، ولكن هذا ليس ما يحصل تمامًا في عالمي، في الحقيقة أنتم لا تشعرون بالألم فور وقوعه، بل إن ما يحصل هو أن ابنة خالتي خلية الأعصاب تقوم بإرسال رسائل كيميائية إلى أشقائها تنذر بحصول مكروه، وعندما تقترب الرسائل من المخ وتصل إلى شقيق خلية الأعصاب الأكبر تحديدًا بمنطقة الرقبة، في تلك اللحظة بالذات، تشعرون بالألم، كل هذا يحصل في سرعة ٤٣٢ كيلو متر في الساعة، أي إني أسرع من قطار ياباني.

هذا هو مستوى سرعة إنجازنا لأعمالنا ودقتها، فنحن معاشر الخلايا نعمل بلا ملل أو كلل طيلة الأربع والعشرين ساعة التي تدرسون فيها، وتقرأون، وتلعبون، وحتى تنامون خلالها. ولكن ما هذا الذي أسمعه؟ كأنه صوت صفارة إنذار. لحظة من فضلكم، هناك شيء يلوح من بعيد.. إنها البكتيريا.. متجهة نحوي بدباباتها العسكرية اللزجة، يبدو أنها تعتزم إلقاء قنبلة.. آه!

دلفتُ وراء صديقاتي، ومن ثم صرختُ بأعلى صوتي: يا كريات الدم البيضاء! يا حماة الخلايا! يا درعنا ضد الغزاة! النجدة! سرعان ما التفت أخي الوسيم قائد جيش كريات الدم البيضاء وقال: لا تقلقي يا أختاه كل شيء على ما يُرام، إنها جماعة البكتيرية رأيناها فيما مضى، وقد جاءت اليوم لتحاول تحقيق ما هو مستحيل، دعي الأمر لنا. سمعتْه بقية كريات الدم البيضاء، فرُفعت الأعلام وانطلقوا على صهوة جيادهم نحو البكتيريا المهاجمة، رفع أخي صوته آمرًا الجنود: هذه البكتيريا تعارَكْنا معها سابقًا، وقائدها هو القبطان نامق، علينا أن نستخدم نفس الأسلوب المضاد للهجوم الذي استعملناه قبل خمس سنوات للقضاء عليهم.

"سمعًا وطاعة يا سيدي"، ردّت كريات الدم البيضاء بصوت واحد، ثم خاضت المعركة التي كان النصر فيها لها، وانسحبت جموع البكتيريا مهزومة إلى الخارج عبر الفم. كثيرة هي الأدوار الحيوية التي نقوم بها في داخل جسم الإنسان، فأنا لستُ خلية واحدة فقط، بل واحدة من ملايين الخلايا بمختلف الأشكال والأعمال، ونحن جميعًا نعمل داخل منظومة جسم الإنسان لإبقائه على قيد الحياة.

هذه هي قصة قصيرة للحظة بسيطة من يومياتي، بل من يوميات ملايين الخلايا، وكل هذا العالم من الخلايا حي وينبض بداخلك كل لحظة حتى تنعم بهذه الحياة الجميلة والثمينة. ■

(*) كاتبة إماراتية.

hiragate.com

عبد العزيز الإدريسي*

واجبنا نحو القرآن المجيد

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، قرأ الشاب بديع الزمان سعيد النورسي خبرًا هز كيانه هزًّا عنيفًا مفاده، أن "جلادستون" رئيس وزراء إنجلترا وقف وهو يحمل نسخة من المصحف في مجلس العموم البريطاني وقال: "إنه لن يستقر لنا قرار في البلاد الإسلامية ولن نستطيع أن نحكمهم ما دام هذا المصحف بينهم أو في أيديهم"، فينبري له أحد أعضاء المجلس يحمل الآخر مصحفًا، ويقول له بصوت عالٍ: "فلنضع هذا المصحف تحت أقدامنا، هكذا"، ولكن رئيس الوزراء "جلادستون" يرد عليه بدهاء وخبث: "ما هكذا تحل القضية، وواجبنا أن نباعد بين المسلمين وبين المصحف"، فيكون رد فعل الأستاذ النورسي في قولة أطرت مشروعه الإصلاحي: "لأبرهنّ للعالم أجمع، أن القرآن العظيم شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها"، وقد كرس النورسي حياته في إظهار إعجاز القرآن، وتوثيق علاقة المسلمين بكتاب الله تعالى إنقاذًا لإيمانهم وترشيدًا لتدينهم.

انطلاقًا من هذه الواقعة -وغيرها- التي كان لها ما بعدها، ما هو واجبنا اليوم

نحو القرآن المجيد في ظل ما تعيشه الأمة الإسلامية من أزمات ومشكلات، وما تتخبط فيه البشرية من منزلقات وتشوهات.

وقبل الحديث عن هذه الواجبات، أود أن أبين بعض خصائص القرآن الكريم، والتي أجملها فيما يلي:

١- القرآن الكريم كلام الله: وكفى بهذه الخاصية مفتاحًا وأساسًا لتلقي أنوار القرآن الكريم وفقه أسراره، فالكلام الإلهي لا نهاية له، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩)، هذا الكلام قول ثقيل لا قبل للإنسان به لولا اللطائف الإلهية في مروره من الذات النبوية الشريفة التي كانت تعاني أيما معاناة في تنزل هذا القول الثقيل لما استطعنا تلقيه، يقول تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾(المزمل:٥)، هذه بصيرة من بصائر القرآن الكريم، تبصر الإنسان بقيمة وثقل هذا القول الملقى إليه من رب العالمين[1]، وقال عز من قائل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١).

في ذات السياق يؤكد الإمام الزركشي ثقل الكلام الإلهي وعمق الكلمة القرآنية بقوله: "لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه، لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح عليه".

٢- القرآن الكريم رحمة للعالمين: بما هو هداية ودواء، ونور وشفاء، ورشد ونماء، دل على ذلك عديد آي الذكر الحكيم، ففي سورة الأنبياء ختم الله تعالى مسيرة الرسل الذين ذكرهم بأسمائهم، بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۞ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ۞ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٥-١٠٧)؛ إنه لخص رسالة القرآن ووظيفة النبي العدنان عليه الصلاة والسلام في إلحاق الرحمة بالعالمين، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

٣- خاصية الهيمنة: بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة:٤٨)، قال ابن تيمية: "فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب، ومعلوم أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة، ومن أسماء الله "المهيمن"، ويسمَّى الحاكم على الناس القائم بأمورهم "المهيمن". ومقتضى هذه الهيمنة وهذا التصديق هو ختم الرسالة وإتمام الديانة، يقول الرسول ﷺ: "إن مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كمَثَل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين" (رواه البخاري).

واجبنا نحو القرآن المجيد

إذا كان القرآن العظيم بهذه المنزلة وبهذه المكانة، فمن واجبنا اتجاهه أو من حقه علينا ما يلي:

أ- واجب الإيمان به: إنه كلام الله جملة وتفصيلاً، مبنى ومعنى، وكان أول من تمثل هذا الإيمان هو الرسول عليه الصلاة والسلام، بدليل قوله تعالى في التنزيل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:٢٨٥)، وإيمان الرسول عليه الصلاة والسلام -بما أنزل إليه من ربه- هو إيمان التلقي المباشر، تلقي قلبه النقي للوحي العلي، واتصاله المباشر بالحقيقة المباشرة، الحقيقة التي تتمثل في كيانه بذاتها من غير كد ولا محاولة، وبلا أداة أو واسطة. وهي درجة من الإيمان لا مجال لوصفها، فلا يصفها إلا من ذاقها، ولا يدركها من الوصف -على حقيقتها- إلا من ذاقها كذلك. وفي سورة النساء يأمر الله المؤمنين بتجديد إيمانهم بالله ورسوله وكتبه وخاصة القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(النساء:١٣٦).

٢- واجب التعظيم: يقول الإمام شرف الدين

hiragate.com

hiragate.com

النووي: "أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانته"[٢]، ومن تعظيمة القرآن الكريم تعظيم المصحف وتكريمه وقراءته على طهارة ورفعه عن الأرض وتقبيله. فقد كان عكرمة بن أبي جهل ﷺ يضع المصحف على وجهه ويقول: كتاب ربي، كتاب ربي، ومن تعظيمه عدم وضع أي شيء فوقه، ومن تعظيمه الإنصات لمن يقرأه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(الأعراف:٢٠٤)، وقال أيضًا: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۞ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الواقعة:٧٦-٨٠).

٣- واجب التعهد تلاوة وحفظًا: ينبغي على المؤمن دوام تعهد كتاب الله حفظًا وتلاوة، حتى ترسخ حقائقه العلمية والإيمانية في النفس، فتصفو البصيرة في صلتها بالله تعالى[٣]. ففي الصحيحين أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: "تعاهدوا القرآن، فو الذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتًا من الإبل في عقلها"، لذلك كان التوجيه القرآني صريحًا في حث المؤمنين على تلاوته للفوز بسعادة الدنيا وكرامة الآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۞ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(فاطر:٢٩-٣٠). وفي تحصيل الأجر والثواب، نجد العديد من الأحاديث التي تحفز على التعهد، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن "ألف" حرف و"لام" حرف و"ميم" حرف" (رواه الترميذي).

٤- واجب العمل بأحكامه: إن القرآن بكل وضوح هو دستور عمل ومنهاج حياة، عنوانه توحيد الله تعالى، برهانه إعمار الأرض وتحقيق الاستخلاف فيها، والعمل بأحكامه تحقيق لوظائف النبوة والرسالة في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

إن من واجب المسلم أن يأخذ بكل أسباب التلقي لرسالة القرآن، بما هو منهاج حياة ودستور عمل، وإن الواجب على المسلمين اليوم أن يقرأوا القرآن بأعين الأحياء لا بأعين الموتى، وأن ينصتوا إليه بآذان الأحياء لا بآذان الموتى، وأن يتفاعلوا معه وكأنه يتنزل عليهم اللحظة.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا﴾(الطلاق:١١). وفي بيان أقومية القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(الإسراء:٩).

وفي هذا الصدد ينبه المفكر الجزائري مالك بن نبي إلى أن الواجب على المسلمين اليوم أن يقرأوا القرآن بأعين الأحياء لا بأعين الموتى، وأن ينصتوا إليه بآذان الأحياء لا بآذان الموتى، وأن يتفاعلوا معه وكأنه يتنزل عليهم اللحظة، بتعبير سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ.

٥- واجب التدبر: وهذا الواجب هو واسطة العقد، وبدونه لا مفعولية ولا أثر للواجبات السابقة، وقد نصت أربع آيات على وجوب التدبر، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(ص:٢٩).

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾(المؤمنون:٦٨-٧٠).

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(النساء:٨٢).

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤).

قال الحسن البصري: "والله، ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنّ أحدَهم ليقول: قرأتُ القرآنَ كله، ما يُرى له القرآنُ في خُلُق ولا عمل". وفي الحديث النبوي الشريف الذي رواه مسلم، يحثنا رسول الله ﷺ على المدارسة التي توصلنا إلى التدبر: "ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتابَ الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينةُ وغشيتهم الرحمةُ وحفّتهم الملائكةُ

hiragate.com

وذكرهم الله فيمن عنده"، وقال سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ: "لا خير في قراءة لا تدبر فيها"، يقول حسن حبنكة الميداني: "فهذا الكتاب قد أنزله الله إلى رسوله محمد ﷺ، وهو مبارك لا تنضب فيوض معانيه، ولكن هذه المعاني المباركة الثرة لا يقتبس منها إلا الذين يتدبرون آياته، فالغاية من إنزاله أن يتدبر الناس الآيات، ولكن ليس الغرض من التدبر مجرد الترف العلمي، والافتخار بتحصيل المعرفة، والتوصل إلى كشف المعاني للتعالي بمعرفتها واكتشافها، إنما وراء الفهم غرض التذكر والعظة، والعمل بموجب العلم، وهذا التذكر المقصود لا يحظى به إلا أولو الألباب، وهم أولو العقول الحصيفة، والأذهان النظيفة، والقلوب الشريفة"[٤].

بل إن الدكتور طه جابر العلواني يجعل من التدبر مدخلاً لتدبير المشكلات الإنسانية: "وأما التدبير فهو التخطيط للخروج من الأزمات و المشكلات، ويفترض أن يكون ناتجًا وحاصلاً ينتج عن "التدبر"، فلا تدبير بلا تدبر، بل ارتجال وتخبط.. لأن من أهم مقاصد التدبر التدبير، تدبير شؤون وشجون الحياة، ومعرفة كيفية معالجة أزماتها بالقرآن الكريم"[٥].

خاتمة القول إن من واجب المسلم أن يأخذ بكل أسباب التلقي لرسالة القرآن، بما هو منهاج حياة ودستور عمل، وتجنب الجريمة النكراء التي وردت في سورة الفرقان﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾(الفرقان:٣٠). ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

الهوامش

(١) الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي، للدكتور أحمد عبادي، دار النيل للطباعة والنشر، ص:١٩.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، لشرف الدين النووي، ص:٩٧.

(٣) مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية، للدكتور فريد الأنصاري، ص:٥٣.

(٤) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، للشيخ حسن حبنكة الميداني، ص:١٠-١١.

(٥) أفلا يتدبرون القرآن؟ معالم منهجية في التدبر والتدبير، لطه جابر العلواني، ص:١٥-١٦.

منابع الحياة

من ينابيع كوثرية ارتوت،
بنَت وعمَّرت، وصروحًا شيّدت..
ثم أجدبت وأقفرت،
فعادت تلك العيونُ بماء الحياة ترويها،
فتخلّق في أحشائها بعث جديد،
يبشر بالربيع ويزهر بالأمل.
***

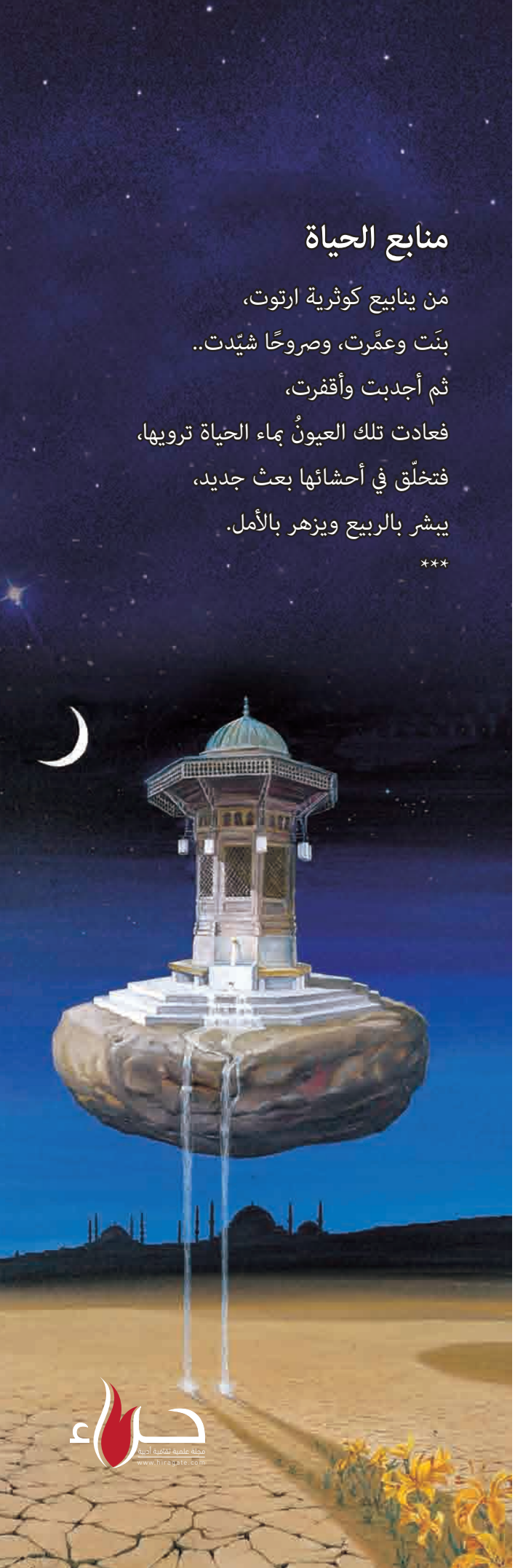

د. محمد إقبال عروي*

خيرية الأمة

وعي شروط الاصطفاء مقدم على عاطفة الانتماء

١ اتفق المفسرون والبلاغيون وعلماء اللغة على أنه من أخطر الأضرار في فهم خطاب ما، أن يفصل عن سياقه وينتزع من سابق نظمه ولاحقه، إذ القواعد قاضية بأن الخطاب لا يفهم إلا ضمن سياقه وتركيبه، ولا يقتصر هذا السياق على الجملة الواحدة أو مجموع الجمل أو الفقرة، بل يمتد إلى الخطاب كله. فلا بد أن تفهم الأجزاء على ضوء الكل، وأن تحدد دلالة الأعيان منظورًا إليها من زاوية البيان باعتباره بنية متكاملة، يوضح آخره أوله، ويزيل اللاحق لبس السابق.

وإذا نزّلنا هذه القواعد على خطاب القرآن الكريم، فإنه من الخطأ الفادح أن تجتزأ الآيات وتفهم مفصولة عن سياقها، بل لا بد أن يراعى في ذلك سياق القرآن كله، لأن القرآن يفسر بعضه بعضًا. فـ"ما أُجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختُصر من مكان فقد بسط في موضع آخر".

وقد صاغ الشاطبي هذا الشرط صياغة محكمة فقال:"فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المتكلف، فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض".

وإذا كانت نماذج التعامل الخاطئ مع آيات القرآن كثيرة، مما لا يستطيع المقام استيعابها جميعًا، فإننا نكتفي هنا بالإشارة إلى تعامل الوجدان العام للأمة مع الآية الكريمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران:١١٠).

فقد وقر في وجدان المسلمين أن هذه الآية ترفع من قدرهم وتجعلهم في المقام الأول عند الله، إذ وصفهم بأنهم خير الأمم. وقد تشكلت عاطفة المؤمنين على هذا الشعور، ونما لديهم الإحساس بالامتياز نموًّا فياضًا.

والمتأمل في هذا الشعور يدرك أنه محمود، لأنه

تأسس على عاطفة معتبرة بنصوص القرآن، فالله رفع من قدرها إذ جعل خاتم الأنبياء منها، وجعل رسالته رسالة عالمية، وهو المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). غير أن هذه العاطفة التي تصل حد التعصب في بعض المناسبات، والتي تدل على قوة في الإحساس بالانتماء إلى هذا الدين وإلى أمة هذا الدين، قد تحولت لدى كثير من المسلمين إلى مخدِّر شعوري ذي قوة تخديرية لا تقاوم؛ فقد طغت العاطفة على العقل، واكتفى اللاحق بأن يمتص من السابق هذا الشعور العاطفي الفضفاض بأنه ينتمي إلى خير الأمم، أما أن نعي -حقيقة- معنى خيرية الأمة، أو أن نعيد قراءة جملة "خير أمة" في سياقها القرآني، ونفهمها الفهم السليم فنتساءل: ما معنى الخيرية في قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؟ وما معنى أن تكون خيرالأمم؟ وهل الخيرية هنا تعني الأفضلية؟ وما علاقة الخيرية بالتشريف؟ وهل الأمة قد حظيت بالتشريف حين وصفت في القرآن بأنها خير الأمم؟ أم أنه تكليف ومسؤولية وجهد وعناء؟

إن التعامل مع هذه الأسئلة، يكشف عن تناقض صارخ بين عاطفة الانتماء التي هي عاطفة مقبولة على أي حال، وبين الوعي بالشروط التي لأجلها كانت أمة الإسلام خير الأمم التي أخرجها الله للإنسانية.

وسيشعر كثير من أبناء هذه الأمة بأن تأجج عاطفة الانتماء لا يوازيه تحرك نحو تحقيق الشروط التي اشترطها القرآن، مما يدل -في نهاية المحصلة- أن هناك تبعيضًا في التعامل مع هذه الآية، إذ اكتفي بجزئها الأول وأهمل جزؤها الثاني، بل أهمل قراءة الخيرية فيها على ضوء آيات القرآن وسوره ومقاصده.

لقد أشار المفسرون -منذ عهد الصحابة والتابعين- إلى أن الخيرية التي وصفت بها الأمة ليست على إطلاقها، وليست تفضيلاً لهذه الأمة على ما سواها تفضيلاً عامًّا دائمًا مجردًا عن أي شرط أو اعتبار، وإنما الخيرية مشروطة بأن تتحلى الأمة بالصفات التي ساقتها الآية تباعًا وهي: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾. فقد ذكر الإمام الطبري عن مجاهد قوله: "كنتم خير الناس للناس على هذا الشرط، أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتؤمنوا بالله".

وروي عن قتادة أن عمر بن الخطاب ﷺ قال في حجة حجها ورأى من الناس رعة سيئة، فقرأ هذه الآية "كنتم خير أمة أخرجت للناس"، فقال: يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها".

وقال الإمام القرطبي في معرض تفسيره للآية: "هي مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطأوا على المنكر، زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم وكان ذلك سببا لهلاكهم".

إن هذا الفهم السليم لآية الخيرية ناتج عن النظر إلى الآية في مجموعها وعدم الاقتصار على جزئها الأول. ويزداد هذا الفهم السليم تأكيدًا عندما نعود إلى سابق تلك الآية قليلاً، فقد ذكر القرآن قبلها قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٠٤)، مما يعني أن الخيرية آيلة إلى التحلي بتلك الأوصاف والامتثال إلى تلك الشروط، فكأنه هدية من الله سبحانه إلى أمة الإسلام نتيجة سعيها إلى أن تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

إن هذه القراءة السياقية تبرز أمرين اثنين:

• العلاقة بين الأمة وصفات الخيرية علاقة كسبية لا فطرية، ومعنى هذا أن الخيرية لا تقوم إلا باجتهاد الأمة وكسبها ونضالها من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، ولا وجود لتلك الخيرية وجودًا قبليًّا فطريًّا.

• وعي شروط تحقق الخيرية مقدم على عاطفة الانتماء لهذا الدين والاعتزاز بمرجعيته، وإذا لم يتحقق ذلك الوعي في صورة فلسفة تحكم رؤية الناس وغاياتهم، وفي شكل برامج ومناهج ومخططات ومشاريع، فإن العاطفة ليس بمقدورها أن تغير من حقيقة الأمر شيئًا.

ومما يزيد فهم دلالة الخيرية قوة، استحضار الآيات التي تتحدث عن أفضلية بني إسرائيل باعتبارهم أهل كتاب، وكيف زالت عنهم بانسلاخهم عن التحلي بشروطها، مثل قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٤٧) وقد ذكرت

hiragate.com

مرتين في سورة البقرة، وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام في رده على قومه وقد طلبوا منه أن يجعل لهم إلهًا صنمًا كما لغيرهم من الأقوام:﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف:١٤٠).

فلم تعد الأفضلية فيهم ثابتة يتوارثها الأولاد عن الأجداد، لأنهم أخلُّوا بالشروط. ولذلك فقد ذهب المفسرون إلى أن الأفضلية بالنسبة لبني إسرائيل، كانت في أيام أعطوا الملك والرسل والكتب.

وقد أورد الطبري أقوالاً في الموضوع تسير جميعها في اتجاه الأفضلية في زمان مخصوص، يقول ابن وهب: "سألت ابن زيد عن قول الله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، قال: عالم ذلك الزمان، وقال: هذه لمن أطاعه واتبع أمره، وقد كان فيهم القردة وهم أبغض خلقه إليه".

وبهذا يتضح أن تفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما "بعد ما عتوا عن أمر ربهم وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة".

وقد أنكر الله عز وجل عليهم تخلّيهم عن شروط أساسية استحقوا بموجبها أن يحظوا بصفة الأفضلية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال فيهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٤٤)، وهذا السؤال الاستنكاري يكشف تناقضهم وإخلالهم ببنود العهد الذي عاهدوا الله عليه، إذ كيف يلوكون الآيات بأفواههم ويوزعونها على الناس، ويتظاهرون بأنهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، ثم يسلكون نقيض ذلك في حياتهم الواقعية فيأتون المنكر وقد نهوا عنه، وينتهون عن المعروف وقد أمروا به.

وفي مناسبة أخرى يعلل القرآن سبب استحقاقهم اللعنة، وذلك في قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة:٧٨-٧٩).

ولم ترد قصص بني إسرائيل في القرآن لأجل التسلية، وإنما سيقت لأخذ العبرة والموعظة، واستخلاص الدروس الحضارية الكبرى، وفي مقدمتها أن الخيرية لأي أمة إنما

وعي شروط تحقق الخيرية مقدم على عاطفة الانتماء لهذا الدين والاعتزاز بمرجعيته، وإذا لم يتحقق ذلك الوعي في صورة فلسفة تحكم رؤية الناس وغاياتهم، وفي شكل برامج ومناهج ومخططات ومشاريع، فإن العاطفة ليس بمقدورها أن تغير من حقيقة الأمر شيئًا.

هي مشروطة باتباع أوامر الله، وبالتالي فإن وعي تلك الشروط المرتبطة بالاصطفاء مقدم على عاطفة الانتماء.

إن المسلمين اليوم، وفي ظل ظواهر الانشقاق والفرقة والتآمر واللعب بمصائر الشعوب والمقدرات، محتاجون إلى معرفة أمرين اثنين على غاية من الأهمية، فأما أولهما فهو معنى الخيرية التي تنتشي بها مشاعرهم ويطرب لها وجدانهم. وأما ثانيهما فهو معرفة الشروط التي يتعين على هذه الأمة أن تتصف بها من أجل أن تحظى بوصف الله لها بالخيرية.

واجب الأمة أن تكون في الطليعة دائمًا، وفي مركز القيادة دائمًا، ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء ولا يسلم لها إلا أن تكون أهلا له.

ولا أهلية لها إلا بالتخلّق بخلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولحكمة ربانية، ذكرت هنا صفات متكاملة يغني بعضها بعضًا وتدعم إحداها الأخرى، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينطلق صوب الخارج، أي صوب المجتمع الصغير والكبير، وذلك انطلاقًا من أن نظرة القرآن إلى الأمة نظرة تقوم على مقولة "الجسد الواحد" و"المصير المشترك"، الذي يمتد من زمن الدنيا القصير إلى زمن الآخرة المديد، صلاحًا وفسادًا، إيجابًا وسلبًا. وبالتالي، فإن التراجع عن خلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مفض إلى وضع اجتماعي يغضب الله، ويخلّ بالأمن النفسي والاستقرار العام، فضلاً عن أنه يجعل من الأمة الإسلامية صورة شوهاء، مرقعة الثوب القيمي، مشوهة المسلك الاجتماعي، من يراها يستخف بها ولا يقيم لها وزنًا مثلما هو حال معظم أقطارها اليوم، ذلك الحال الذي حوّل أحلام الألفية الثالثة إلى أوهام متبخرة.

ومن مظاهر حال الوهن أن تسربت الفلسفات

hiragate.com

التي ترفع من شأن النزعة الفردية والنسبية وحقوق الفرد، وتستغل رغبة الشباب الجموحة نحو التحرر والاستقلالية، حتى أصبحت الأمة طرائق قددًا، وأصبح البعض يراهن على تعدد المرجعيات والهويات داخل البلاد الإسلامية، وأضحى خلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -بالمعنى العام المرتبط بالحياة العامة والسياسة والاقتصاد- نادرًا، وتحول خلق تغيير المنكر إلى تدخل في شؤون الغير، واقتحام للعالم الخاص للأفراد، فضلاً عن أنه مدعاة إلى النفور والاحتقار، واستغل التراث الفقهي في هذه القضية استغلالاً سلبيًّا، فأصبح من المظاهر المألوفة أن تسمع من يحتج ويقول إن تغيير المنكر باللسان خاص بالعلماء، مع أن هذا غير مسلَّم به على إطلاقه، بل يكفي أن يكون المرء الناهي عالمًا بأن السلوك الذي ينهى عنه بالحسنى إنما هو من المنكرات في الدين والقيم، دون أن ننسى بأن جهة تغيير المنكرات اليوم ليس من الضروري أن تكون شخصية مادية ممثلة في الأشخاص والأفراد، فقد تكون -وهذا عين الفهم السليم- شخصيات معنوية ممثلة في المؤسسات والهيئات والجمعيات.

ومن الأمور اللافتة في الآية المذكورة، أي قوله تعالى "كنتم خير أمة"؛ أنها أخَّرت شرط الإيمان على شرطي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع أن المتبادر إلى الذهن أن يتقدم الإيمان لأنه أصل، وتتأخر الصفتان الأخيرتان لأنهما ثمرة ونتاج.

وقد لاحظ بعض المفسرين هذا التقديم والتأخير، وقدموا له توجيهات دقيقة، نختار منها ما ذهب إليه الطاهر بن عاشور من أن "تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأخير الإيمان بالله، راجع إلى أنهما الأهم في هذا المقام المسوق للتنويه بأفضلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، تطبيقًا للمبدأ البلاغي الذي ينص على أن التقديم مشعر بالأسبقية والأفضلية، وصورة من صور قاعدة "الاهتمام الذي هو سبب التقديم يختلف باختلاف مقامات الكلام".

لكن هناك توجيه آخر، وهو أن الإيمان ذكر -هنا- عقب الصفتين ليكون بمثابة المعيار الذي توزن به أعمال الأفراد وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فليس الأمر متروكًا لرغباتهم وأهوائهم، من غلب على ظنه أو هواه أن هذا معروف أمر به، وأن هذا منكر نهى عنه، وإنما الأمر محكوم بثوابت وموازين صحيحة لا تتغير، ولا تتأثر بالأهواء.

أي لا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم، والتعريف السليم للمعروف والمنكر، فإن اصطلاح الأفراد والجماعات واتفاقهم لا يغني في هذا المجال، فقد يعم الفساد وتضطرب الموازين وتختل فيتنازع الناس، مثل ما هو حال أغلبيتهم اليوم، في حدود المعروف وحدود المنكر، وما يصنف في هذه الخانة وما يؤول إلى الخانة الأخرى. ومن ثم لا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والمعروف والمنكر.

وكأن ذكر الإيمان عقب الصفتين تذكير للمسلمين بأن اتصافهم بذلك إنما لكونهم مؤمنين بالله، وهم عندما يلبُّون الدعوة فيقومون بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يقومون بأمر الله ويستجيبون لندائه لا لأهوائهم ورغباتهم، يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن: "يجب أن يكون الخالق العظيم وابتغاء مرضاته هدف صاحب كل دعوة، وإلا دخلت إلى الساحة الكثير من الأصنام، وتلبس الباطل بلباس الحق، وظهرت الأهواء والشهوات في مظهرالفكر، وارتكبت جرائم عدة باسم الجهاد".

وفضلاً عن هذا وذاك، فإنه تذكير لهم بأن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر إنما يراد به وجه الله، ويقصد به الأجر عنده تعالى، وهذا من شأنه أن ينفي عن أعمالهم مظاهر التسلط، ويجنب سلوكهم سمة الاعتداء والظلم والتعصب والإقصاء والملاحقة والاضطهاد، ويخلصهم من الجور في أمرهم ونهيهم، فليس تحليهم من قبل القرآن بصفة إصلاح أحوال الأمة، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، مدعاة إلى أن يتحولوا إلى متشددين مع الناس، مستبدين في الكلمة والسلوك، موزعين للأوصاف والأحكام على الأبرياء لمجرد أنهم على الحق وغيرهم -بظنهم- على الباطل، بل لا بد أن يعلموا أن من مقتضيات الإيمان الذي وصفوا به، أن يكونوا منصفين عادلين رحماء بالناس والمخالفين، رحماء بأنفسهم، لينين حين يأمرون، ولينين حين ينهون، مبشرين لا منفرين، دعاة لا قضاة، ولهم في سيرة

hiragate.com

الرسول عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة، فقد رفع شعار "إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه".

إن جمع الآيات الداعية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقراءتها في ضوء أحاديث الرسول ﷺ في الموضوع وشروحات العلماء، يوصل إلى نتيجة حتمية صاغها الأستاذ فتح الله كولن في قوله: "على المؤمن أن يوفي هذه الوظيفة الملقاة على عاتقه حقها، ضمانًا لقبوله مؤمنًا لدى الرب الجليل وبقائه على الإيمان به، وذلك للعلاقة القريبة بينهما. فلا يثبت الأفراد وكذا الجماعات وجودهم، ولا يمكن أن يديموه، إلا بإيفاء هذه الوظيفة حقها". أي إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجسد هوية الأمة، ومقومًا أساسيًّا من مقومات تعريفها، وملمحًا بارزًا من ملامح قدرها الماضي والحاضر والمستقبل.

بل قد يذهب المتأمل إلى أبعد من ذلك، فيقول مقارنًا بنص القرآن بين وضع الأمة ووضع بني إسرائيل: إن شرط وجود الأمة وبقائها هو أن تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل بحسب موقعه، وكل بحسب طاقته، فإن هي ضيعت كان مصيرها الضياع، كما يذكر القرآن عن بني إسرائيل. ولعل العقلاء يأسفون لهذا الضياع الذي يجثم على جسد الأمة في التصورات والمفاهيم والرؤى والمناهج والنظر إلى المستقبل.

وإذا كثرت الدعوات اليوم إلى الإصلاح والتغيير والبحث في مناهج النهوض والارتقاء، فلا بد أن نتذكر أهم الشروط التي اشترطها القرآن على أمة القرآن، ألا وهي أن تظل حامية للخير، مدافعة عن القيم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المال والسياسة والاقتصاد والقيم.

إن ما انتهى إليه الواقع المعاصر من مظالم ومفاسد وانحرافات في المفاهيم والمناهج والمخططات الاقتصادية والاجتماعية والقوانين الدولية، لم يكن لينتشر هذا الانتشار السام لو كانت الأمة راعية للصفات التي استحقت الخيرية بموجبها، راعية لها في علاقة الإنسان بنفسه، وفي علاقة الأفراد والجماعات الداخلية فيما بينهم، وفي علاقتها بالأمم الأخرى.

وإن التراجع في حفظ تلك الشروط ورعايتها، فسح المجال في وجه الانحراف ذي المستويات

إن شرط وجود الأمة وبقائها هو أن تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل بحسب موقعه، وكل بحسب طاقته، فإن هي ضيعت كان مصيرها الضياع، كما يذكر القرآن عن بني إسرائيل.

حراء

المتعددة، وقد أشارت أحاديث الرسول الكريم إلى أن انتشار الرذيلة مشروط بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يدل -بطريق المقابلة والمفهوم- على أن ارتفاع الرذيلة من الواقع وتقليل شرورها ومفاسدها، مشروط -كذلك- بالاتصاف بالصفتين اللتين أدرنا عليهما حديثنا في هذا المقال الموجز.

إن السلوكات والوقائع تنتج عن الاقتناعات والتصورات، فلا مجال للعبث أو الفوضى، ولا مكان للصدف أو الحظوظ، فإما وعي بالشروط وهروع إلى تمثلها والانطلاق وفق هداها، وإما إعراض وغفلة يسوقان إلى التخلف والإصر وحضارة الأغلال التي يكتوي بها مشرق الأمة ومغربها، والعالم كله على حد سواء.

بذلك وحده نرى -كما يقرر الأستاذ كولن- أن أجمل هدية يقدمها المسلم باسم الإنسانية، هو تحقيقه لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. نعم، "إن أداء هذه الوظيفة بإحسان ولطف، لهو أعظم هدية وأثمنها". ■

(*) المنسق العلمي لأكاديمية "مدارات" للاستشارات والتدريب / المغرب.

المراجع

(١) الفتاوى، لابن تيمية، ج١٥.

(٢) الموافقات في أصول الشريعة، للإمام الشاطبي، تصحيح: محمد عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ج٣.

(٣) جامع البيان، للإمام الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢، ط٤، ج٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تصحيح: أحمد عبد الحليم البردوني، ج٤.

(٥) تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، ج٣.

(٦) الموازين أو أضواء على الطريق، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، مصر، ط٥.

(٧) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دارالنيل، مصر، ط٥.

hiragate.com

علي عفيفي غازي*

الإبل في كتابات الرحالة

١

الكتابة عن الإبل في كتابات الرحالة موضوع متشعب، وبه اتجاهات كثيرة، إذ نقل كل رحالة رؤية مختلفة عنها، رغم ذلك اتفق الجميع على أهمية هذا الحيوان لحياة البدوي في الصحراء، فهو أثمن ما يملك في حياته القاسية. فليس حليب النوق وحده هو ما يجنيه البدوي من فائدته، فهو طوق نجاته في بحور الرمال العظيمة، ومصدر مأكله ومشربه وملبسه. ولقد رصد الرحالة مظاهر الذكاء واللطف والحنين والشوق عند هذه الأنعام، ورصدوا كذلك مظاهر تعامل البدو معها، ونظرتهم لها على أنها مقياس الثروة البدوية في مجتمع لا يعرف العملات المعدنية أو الورقية، ولهذا كان الوسم لأجل تمييز قطعان كل قبيلة وعشيرة عن غيرها.

يصف "ويليام سيبروك" الجمل، بأن له أهدابًا كثيفة على جفنيه الأعلى والأسفل، وهذا ما جعل عينيه تبدوان إنسانيتين على نحو غريب.. وبره لين ناعم، جعد وكث على السنام وأملس على باقي جسمه، مخمطه طري، ونَفَسَه طيب، وبطنه صلب ومتين. ويُضيف "لوي جاك روسو"، أن جمال العرب ليس لها سوى سنام واحد، وأجسامها مجردة من اللحم (أي إنها ضعيفة)، وهي كثيرة الشش (أي غليظة الجلد)، ورغم قوتها فهي كثيرة التقرح، معرضة للآكلة ولأمراض أخرى عديدة بسبب كثرة السفر والتعب والحرمان.

وتبلغ مُدة الحمل عند الإبل اثني عشر شهرًا، وتُرضع الناقة صغيرها سنة كاملة. ولكي لا يرضع الحوار كميات كبيرة من الحليب، يربط البدو نهايات أثدائها بقطعة مستديرة صغيرة من الخشب يُطلقون عليها مسمى "توداه"، وبخيط مجدول من الصوف أو من شعر الجمل الناعم يُسمونه "جميعة"، ويضعون طبقة رقيقة من الروث تحت الخيط لكي تحول دون إصابة الحلمة بجروح. ولأجل فطام الحوار عند بلوغه السنة، يضع له صاحبه في أنفه قطعة من الخشب مُدببة، فإذا ما أراد الرضاعة وخذت الأم ما يُسبب نفورها وطردها صغيرها بنفسها، وتُجبره على الفطام. ولا يُسمح للأمهات بأن تُرضع أولادها أثناء الرعي، إذ يُحتفظ بحليبها لأفراد العائلة البدوية التي تُشارك الوليد فيه، وتُحلب مساءً عند عودتها من المراعي، ويُترك الوليد بعد ذلك معها ليلاً، ثم يُعزل عنها. وقد تُرافق الأمهات أولادها، وفي هذه الحالة تُلف قطعة قُماش حول أضرع الناقة الأربعة كي تمنع الوليد من رضاعة أمه، وتُسمى "الصرار".

غريزة الحنين للأصدقاء عند الإبل أقوى من جميع الحيوانات الأخرى، فيذكر "ديكسون" أن البدو إذا ما أرادوا بيع إحدى النواق رافقوها بأخريات، وما إن يتمّ بيعها حتى يُغادروا على الفور مُتسللين مُحاولين عدم السماح للمُباعة أن تحس بنواياهم، وذلك كي لا تشعر بالحنين. وتظهر هذه الغريزة خاصة لدى الإبل الصغيرة السن التي لم تعتد على مغادرة الديار التي عاشت فيها مع بقية القطيع منذ ولادتها، ولم تألف الأماكن الأخرى. والوسيلة الوحيدة للتغلب على هذه الغريزة، هي تقديم الطعام والماء. وإذا ما فقدت الناقة ولديها، فهي لا تهدأ من الحنين، ولهذا يُطلقون عليها "الخلوج" نظرًا للأهمية الهائلة للجمل عند البدوي من جهة، وللغنى الواسع الذي تتميز به لغته من جهة أخرى، فإن لديه عددًا لا حصر له من التسميات لكل نوع من الإبل، ليس فقط حسب العمر والعرق، وإنما كذلك حسب الخصائص، والعلامات المميزة، وحسب الظروف الخاصة التي يمر بها. ولكل صاحب لون منها تسمية خاصة، وهذه الأسماء يُتقنها كل بدوي، وبسهولة بالغة يستطيع أن يُميز بين الجمل المُستخدم لحمل الأثقال، والمُخصص للركوب، إذ إن الأول ثقيل وضخم وبطيء، والآخر خفيف الحركة وسريع.

ولكل جمل اسم يعرفه جيدًا، وخصلة من خصال الشجاعة، أو الحذر، أو سلاسة القيادة؛ فـ"الحلوة" ناقة بيضاء اللون، لطيفة وأليفة ومُطيعة، أما "الحمراء" فهي طائشة ومغرورة، أما "حذيران" فجمل صاحب شخصية

متميزة، فخور بنفسه وبقوته وفهمه الراقي، وصاحب رأي يفرض الاحترام كأنه يتفاخر بأنه هو الذي يسير في مقدمة الركب الذي وافق على أن يكون "حذيران" هو القائد والزعيم، وبقية الإبل تتبعه.

والإبل الأصيلة عند البدو هي العُمانية والباطنية والحرة والأرضية؛ وأفضلها العُمانية، وتعود أصولها إلى ساحل عُمان، وتستطيع أن تسير بوتيرة تصل إلى ١٤ ميلاً في الساعة دون أن تُغير من سرعتها لمسافات طويلة في كل الأحوال والظروف، وتبقى على الدوام رافعة الرأس ممدودة العُنق. وأجملها الباطنية التي تتميز بعلو القامة وبرأسها الصغير وبجبهتها العريضة، بأنفَيْها الصغيرين، وأذنَيْها الطويلتين نسبيًّا، تُشبه حركتها حركة الغُزلان، وتمتاز بسرعتها الفائقة. أما الحرة فتربى في المناطق التي تنتشر فيها قبائل شمر وعنزة، وتعود أصولها إلى قبيلة الشرارات. وترجع الأرضية إلى أواسط شبه الجزيرة العربية.

ويذكر "لوي جاك روسو" أن الجمل يتمتع بالذكاء، ويحتفظ بذكريات مُعاملة صاحبه القاسية، والويل للغريب الذي يُحاول إزعاجه، فإنه ما إن تسنح له الفرصة حتى يطرحه أرضًا ويسحقه تحت خُفه. ويُشير "دبوريه" إلى أن البدو يتعلمون من الإبل، عندما تهب ريح الشمال الحارقة التي تحمل معها أبخرة كبريتية وتيارًا من الهواء لا يرتفع عن مستوى الأرض أكثر من أربعة أو خمسة أقدام، وتتفادى الجمال هذه البلية بغريزة عجيبة. وقد تعلموا منها كيف يقوا أنفسهم من هذه الرياح عند هبوبها، وذلك بالانبطاح على الأرض، وأن يُغطوا رؤوسهم تحت رمال الصحراء الجافة والحارة.

ويروي "نواب حميد" قصة ناقة فقدت وليدها بعد ولادته، فأولعت بصبي -ابن راعيها- واعتبرته صغيرها، وبالرغم من مرور ثلاثة أشهر على فقدانها صغيرها، فإنها ما تزال مُتعلقة بالصبي وتتبعه أينما سار، وإذا ما تظاهر أحد بأذيته فإنها تُظهر غضبها، وتركض وراء مؤذيه، ولا تُدرّ الحليب في الصباح والمساء ما لم يلمس ضرعها أولاً.

ورغم وصف "آن بلنت" للجمل بالغباء وسوء الطبع، نراها تذكر أنه حيوان مقتصد لقوته، ويعرف قيمة الوقت، ولا يُضيع أية لحظة، وكثيرًا ما يُصغي إلى نداء سيده، وعندما يرصد نيران المخيم، فيراها مشتعلة يعرف أنه قد حان وقت المبيت فيشق طريقه ببطء إلى المضارب لينيخ بإرادته لكي يحصل على نصيبه من الفول أو كومة من بذور القطن، ثم يجتر ما مضغ حتى الصباح.

الإبل سر الحياة في الصحراء كما يقول "برترام توماس"، فهي الوسيلة الوحيدة التي تنقل المسافر إلى النجاة. فإذا مات الجمل في الأماكن الجرداء النائية مات صاحبه، ولهذا يُولي البدوي الإبل الاهتمام الخاص. والجمل هو الرفيق الوديع للبدوي، إذ يكتفي لطعامه بالشوك والحسك، ويتحمل الأتعاب، ويُقاوم أصعب ظروف الطبيعة، كما يتحمل العطش لأيام عديدة، وهو بذلك يُساهم في التخفيف من تعب صاحبه المتجول.

يذكر "ديكسون" أن سرعة المسير العادية للذلول تبلغ ٤ أميال في الساعة، كما تبلغ ٦ أميال ما بين المشي والسير خببًا، و١٣ ميلاً في السير السريع لمسافة قصيرة، و١٠ أميال في السير السريع لمسافات طويلة. أما سرعة الإبل في قافلة مُحملة فتصل إلى ٣ أميال في الساعة، وعند السفر لمسافات طويلة يتمّ التوقف كل ٢٠ ميلاً، أما ما يُعرف منها "بالهجن"، فإنه يستطيع بسهولة قطع مسافة ٢٠ فرسخًا في ساعات الصباح.

ومع دخول وسائط النقل الحديثة إلى البادية تقلص دور الجمال في عملية النقل. ويذكر "أوبنهايم" أن تربية الجمال تراجعت تراجعًا شديدًا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، لأن الطلب عليها تناقص بشدة، فانخفضت مبيعات العشيرة من ٣٥ ألف جمل إلى قرابة ١٢ ألفًا عام ١٩٠٨، ثم حوالي ٨ آلاف فقط عام ١٩٢٧.

ويُشير "ديكسون" إلى أن حليب الإبل غذاء جيد جدًّا، إلا أنه لا يحتوي على المواد الدسمة، ولهذا لا يصلح لاستخراج الزبدة لعدم احتوائه لها، كما يُسبب الإسهال قليلاً، لا سيما عند شربه في المرات الأولى. ويُشير "داوتي" أن النوق تُحلب مرة واحدة في اليوم عند المساء، وقد تُحلب في الصباح لشخص مريض أو غريب، أو في أثناء النهار لعابر سبيل. ويقتصر شراب البدو

hiragate.com

على الماء ولبن الإبل والضأن والماعز بأشكال مختلفة.

ويتدبر البدو أمر العطش حينما ينفد الماء حسبما يذكر "ألويز موزيل"، بأن يحصلوا عليه بذبح أسمن جمل، ويأخذوا كرشه ويضعوه على عباءة، ثم يضغطون عليه حتى يصب ما بداخله من السوائل إلى قربة من الجلد، ويدعوه فترة لتبرد هذه السوائل وترقد. وليس بينهم من لم يتذوق الماء على هذا النحو على الأقل مرة واحدة. وعندما تقطع القبائل البدوية صحراء قاحلة لا تتوافر بها المياه؛ فإنهم ينتقون عددًا من الجمال ويرونها بكمية كبيرة من الماء تصل إلى ١٧ جالونًا، ثم تُقطع ألسنتها أو تُحاك مشافيرها حتى لا يختلط الطعام مع الماء، وعند الحاجة يذبحونها ويستخرجون الماء من بطونها، حيث يكون صالحًا للشرب إذا ما تُرك لبضع ساعات.

يصنع البدو من صوف الغنم ووبر الإبل العباءة أو البشت، وتتمثل في معطف واسع مفتوح من الأمام، مستطيل المقطع يحمل فتحات للأيدي، وأجودها المصنوعة من الوبر، وأشهرها المصنوعة من صوف الضأن، وقد يكون نسيجها ناعمًا رقيقًا أو خشنًا سميكًا. والنساء في شمر يرتدين فوق ملابسهن في الشتاء -شأنهن شأن الرجال- جاكيته سميكة من وبر الإبل.

تتكون خيمة البدوي أو بيت شعره في شكلهما البدائي، من عدة قطع عريضة منسوجة من شعر الماعز ووبر الإبل. تقوم النساء بغزله ويستعملن لهذا الغرض "المغزل". ويحتوي قسم النساء "حجرة الحريم" في البيت البدوي، على كل لوازم البيت المحفوظة في الجوالات الصوفية المسماة بـ"القش". وهذه الأكياس مصنوعة من شعر الماعز (الخرس)، أو وبر الإبل (العِدِل). وتُصنع خيام البدو من الصوف ووبر الإبل لمقاومة المطر والمحافظة على الدفء دون أن تكون حارة جدًّا.

ويذكر "دوبريه" أن البدو يستخدمون الروث الجاف كمادة وقود بديلاً للخشب أو الفحم اللذين يغيبان عن الساحة الصحراوية تمامًا. وأحيانًا تقوم النساء بجمعه وتجفيفه في الشمس لاستخدامه وقودًا لإعداد القهوة ولإنضاج الخبز أيضًا، فيضعون طبقة مُشتعلة منه فوق الصاج، ويبسطون أوراق العجين فوقها، ثم يُغطونها بطبقة أخرى من الروث المشتعل.

وقد اضطر "ميهاي" الحداد لتناول الخبز العربي المشوي على جمر روث الجمال. وكذلك تناول فنجانًا من مشروب الضيافة من دلة القهوة الساخنة الموضوعة على جمر روث البعير. واحتسى "لوثر شتاين" القهوة من إبريق نحاس كبير فيه ماء مغلي وضع على نار روث الجمال المُتيبس.

والبدو يجمعون روث الإبل لإشعاله بدلاً من الحطب، ويُجففونه ويستعملونه كوقود. وشاهد "ليونهارت راوولف" بعض نساء قبيلة الفقراء وقد انحدرن من ربوة ليجمعن روث الإبل، بُغية استعماله وقودًا بدلاً من الحطب الذي هم في أمس الحاجة إليه. وأقبل سكان القرية ليجمعوا روث الدواب -كما اعتادوا أن يفعلوا- لإشعاله بدلاً من الحطب، وفي إحدى زوايا الخيمة يُكدس روث الجمل اليابس لاستخدامه كوقود. وهكذا يحصل البدوي على الوقود كما يرى "ويلفريد ثيسجر" بدون أن يُنفق شيئًا.

الإبل ثروة البدوي، فالجمل يُقدم له تقريبًا كل ما يحتاج إليه للحياة، وهو المصدر الرئيس للدخل كسلعة تجارية وتبادلية. ويستحق أن يكون أكبر ثروة للبدوي، فبدونه تُصبح حياة البدوي مدعاة للرثاء، بل إنه لا يستطيع العيش من دونه. وفي بعض الحالات تُباع الإبل للاستفادة من أثمانها لسد بعض حاجات الحياة البدوية على الرغم من بساطتها.

وهناك عشائر تهتم بتربية نوع من الإبل، ويصل ما تملكه العشيرة أحيانًا حسب تقدير "تايلر" أكثر من ألفين. فتفتخر قبيلة المُطير بتربيتها "الشرف"، وهو نوع من الإبل بلون أسود غامق. ويهتم أفراد القبيلة كثيرًا بهذا النوع، وله رعاته الخاصون، ويفتخرون بأنه أفضل من الأنواع الأخرى خاصة "المركب"، وهو نوع من الإبل تُربيه عشيرة الرولة. وتُستخدم "الشرف" في الحرب بين القبائل كثيرًا. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

د. موبينا مفتيك*

كيف غير الإنترنت طريقة تفكيرنا؟

ذكرت بعض الدراسات الحديثة أن أكثر من ربع سكان المعمورة، في اتصال دائم على شبكة الإنترنت، مؤكدة أن هذه الشبكة استطاعت الولوج في كل مجالات الحياة، وأصبحت تشغل حياة الناس بشكل متزايد حتى جعلتهم "إنترنتيّين"، كما لفتت أن كوريا الجنوبية هي الأكثر اتصالاً بالإنترنت في عالم اليوم. أُطلقت أول صفحة إنترنت في العالم في ٦ أغسطس ١٩٩١، ثم تسارعت وتيرة التطور حتى وصل عدد الصفحات في عام ٢٠١٦ إلى أزيد من ست ملايين صفحة، مع الأخذ بالاعتبار أن هذا الرقم ليس دقيقًا بالنسبة للتطور التكنولوجي المستمر في مجال الإنترنيت. وفي غضون عشرين عامًا مضت توسعت أفاقه وأهدافه، حيث استهدف في بداياته فضاء يستثمره الفرد في التعبير عن رأيه ومن ثم توطيد الديموقراطية في بلده وفي العالم أجمع.

الإنترنت في عالمنا

أشار البروفيسور "أليكس كروتوسكي" (Aleks Krotoski) –في سلسلة وثائقية عرضتْها قناة BBC– إلى التطور الذي شهدتها شبكة الإنترنت وانتشارها السريع الذي عمَّ العالم كله، ثم إلى التأثير الكبير والعميق في حياة الإنسان اليومية، كما أشار السيد "تيم بيرنرزلي" مخترع شبكة الإنترنت، ومؤسسو مواقع "فيس بوك" "وتويتر" و"أمازون" و"آبل" و"ميكروسوفت"، إلى التباين الكبير بين الغرض الأساسي الذي من

أجله اختُرعت شبكة الإنترنت، والحال التي آلت إليه اليوم؛ حيث كان الغرض من اختراعها هو الإسهام في تعزيز فكرة الديموقراطية ودعم الجماهير العريضة ضد السلطات القمعية، وتهيئة جو يمنح للفرد فرصة التعبير عن رأيه والإبداء عن أفكاره بحرية كاملة.

ولكن مع تقدُّم الزمان تحول الإنترنت إلى فضاءِ استثمارٍ تجاري تسعى الشركات الكبيرة من خلاله إلى تنمية رؤوس أموالها وتضخيم حجمها -مثل جوجل وأمازون- الأمر الذي استغلّته بعض السلطات وحوَّلته إلى فرص تمكَّنت خلالها من التحكُّم بالمحتوى أو من الحظر للصفحات وقمعها، ولعل هذا يبيّن بجلاء ابتعاد فضاء الإنترنت من الغاية المرجوة له عند أول اختراعه. هذا وقد نوَّه البروفيسور "كروتوسكي" بمقولة "سعداءُ لكننا مخدوعون" لـ"سيث جولدستين"، مؤكدًا أنها وثيقة الصلة بالواقع الذي نعيشه في فضاء الإنترنت الفسيح، من حيث الكمّ الهائل من البيانات الشخصية والبصمات الإلكترونية التي نُدخلها هذا العالم دون الوعي بخطورتها.

الإدمان على الإنترنت

لا شك أن شبكة الإنترنت أصبحت جزءًا من حياتنا اليومية، حتى إننا لا نكاد نتصور الحياة بدونها.. دخلت بيوتنا وشركاتنا ومؤسساتنا، فشاركناها معلوماتنا الشخصية وتصرفاتنا اليومية وعاداتنا الاجتماعية.. وهذا بطبيعة الحال جعلنا فرصة ذهبية لشركات الدعاية والإعلان؛ حيث تقوم هذه الشركات بدراسات حول أكثر الأشياء بحثًا على صفحات الإنترنت لتعلم سلوكياتنا اليومية، ثم تبدأ في عرض المنتجات والسلع التي لم نكن نعرف أننا بحاجة إليها، وهذا ما يسميه البعض بـ"الاستهداف السلوكي".

والجدير بالذكر أننا نجهل كيفية الاستفادة والانتفاع بهذا الكم الضخم من البصمات الإلكترونية حتى اليوم، ورغم ذلك -وبطريقة تلقائية- نشارك العالَمَ أدق وأهمّ التفاصيل والمعلومات المتعلقة بنا عن طريق شبكات التواصل الاجتماعي مثل الفيس بوك، والمدونات؛ إذ كثير منا يستخدم اسمه الحقيقي، وتاريخ ميلاده، ومحل إقامته، وحالته الاجتماعية إلى غير ذلك من المعلومات المهمة عن الشخصية، ولكن دون إدراك بمدى الخطورة المترتبة على هذا الانفتاح.

تأثير الإنترنت على التفكير

هناك باحثون وخبراء يشيرون إلى أن الإنترنت غيَّر من طريقة التفكير لدى الإنسان، ويرجِعون سبب ذلك إلى موجة المعلومات التي تتدفق علينا وتتجدد كل حين على شبكة الإنترنت، الأمر الذي يُفقد القدرة على العمق بشيء واحد والتركيز عليه فترة طويلة؛ إذ يتشتت العقل ويبدأ المستخدِم بالنقر على الروابط والوصلات الموجودة على الصفحة، ويُبحر في فضاء لا تخوم له، وبذلك يكون الإنترنت هيمن على المستخدِم وغير طريقته في التفكير.

إذن، تأثير الإنترنت على حياتنا واضح وضوح الشمس.. ولا يخفى على أحد أنه (الإنترنت) أدخل إلى الحياة الحديثة جملة من التفاعلات، انعكست آثارها بشكل واسع على الفرد والأسرة والمجتمع، فظهرت أنماط جديدة في السلوكيات والقيم الاجتماعية. ولكن هل كانت هذه الانعكاسات في القيم والسلوكيات ضارة أم نافعة؟ لا شك أن الإنترنت -كغيره من الاختراعات- إذا أُحسن استخدامه كان عاملاً فاعلاً في نمو وتطور الفرد والمجتمعات قيميًّا وسلوكيًّا، وأمّا إذا أُسيء استخدامه كان العكس.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى مصطلح "الإنترنتيّ" الذي ذكرناه في بداية المقال، قاصدين منه "الإدمان على الإنترنت".. ومما لا شك فيه أن الإدمان هو بوابة الأضرار، ولقد أشارت الدراسات إلى أن الإدمان على الإنترنت يؤدي إلى مشاكل خطيرة في العلاقات الاجتماعية، ولا سيما في العلاقات الأسرية، مؤكدة أن هذه الحال عند البعض تصل إلى إهمال أنفسهم وأطفالهم أو أفراد أسرتهم، وهذا سيُحدِث -بطبيعة الحال- انفكاكًا في الدعائم التواصلية.

ونختم بمقولة "إيميلي بيل" مخرجة المحتوى الإلكتروني لصحيفة جارديان الإخبارية، حيث تقول: "استشراف فضاء الإنترنت على المدى القريب عمل صعب للغاية، وأما السؤال عن وضع الإنترنت وحال الناس خلال الأربعين سنة القادمة فأمر يتعذر تخمينه". ■

(*) كاتبة وباحثة من سراييفو. الترجمة عن الإنكليزية: أكرم محمد.

hiragate.com

أ.د. علي جمعة*

منظومة الأخلاق

ركن في النموذج المعرفي الإسلامي

لقد وُضِعت الشريعة الإسلامية لتحقيقِ مقاصدَ وغاياتٍ فاضلةٍ تُهَذِّب سلوكَ من يتبع هدْيها ويقتفي آثارها، فتؤتي ثمارها في تحقيق مصالح البلاد والعباد. وتهدف تلك المقاصد إلى توفير الأمن والسلام في حياة الناس جميعًا، أمنًا وسلامًا يشمل معايشهم وعقائدهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم.

أمرنا الله بالرحمة والتعارف والتعايش بسلام، حتى يكون الدين كله لله وحده، لا سلطان لإنسان على آخر فيه، وحتى يمكن لكل فرد -طُبِّق عليه سلطان الشريعة- أن ينعم بالحرية الدينية ويأمن على ماله وعرضه وحياته، يأمن في بيعه وشرائه، يأمن في بيته وبلده، يأمن في أداء شعائر دينه والتعبير عن معتقداته ومذهبه.

والقوانين والنظم الشرعية وغيرها إنما وضعت لتضبط تلك الحرية وتنظمها، فإن الحريات في المجتمع قد تكون مشتركة، وقد تكون متفقة، وقد تكون متبادلة، وقد تكون متقاطعة متضادة، والفرض الأخير هو محل التدخل بالأمر والنهي، أو النصح، أو الزجر بالعقاب، والوعد بالثواب؛ لأنه موطن النزاع بين أفراد المجتمع.

فالإنسان الحر هو الذي يحترم قيامه في مجتمع إنساني يتمتع بالرقي والتقدم، ويجب عليه أن يراعي حقوق الآخرين وحرياتهم، ويدافع عنها بمثل ما يراعي به حقوقه ويدافع عنها ويطلب منهم مؤازرته في ذلك.

ناقِش الآخرين في أفكارهم ومعتقداتهم، واعترض عليهم في إطار تعبيرك عن رأيك وعن معتقدك، ولكن أبدًا لا تسئ إلى الآخرين أو تسفه من مقدساتهم أو تسخر من شعائرهم، بل عليك احترام ذلك كله، كما يتوجب عليك مطالبة الآخرين باحترام مثل هذه الأمور في حقك.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۞ وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(الأنعام:١٠٧-١٠٨).

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥).

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾(العنكبوت:٤٦).

وبناء الحرية في الشريعة الإسلامية أساسه وجوب تأمين حياة الفرد بتأمين ضروريات العيش الكريم وحاجياته، ومن هذا المنطلق يمكن للفرد أن ينعم بحقه في التفكير والاعتقاد والتدين والتعبير، فإن ضنَّ المجتمع بحقوق المحتاجين والضعفاء والفقراء فيه فتباينت طبقاته في الغنى والفقر، فإنه بذلك يَحْرِمُ الفقير حقه في الحرية؛ لأن الحرية وإن كانت غالية كالحياة إلا أنها تقهر وتداس تحت وطئة العوز والحاجة.

قال تعالى: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(الصف:٨-٩).

وتمام النور وإظهار الحق إنما يتحقق حينما يصير المجتمع والأمة نموذجًا يعكس أو يظهر جماليات

تمام النور وإظهار الحق إنما يتحقق حينما يصير المجتمع والأمة نموذجًا يعكس جماليات الشريعة من الرحمة والسلام والاحترام والتعاون والاتحاد والسعادة والصدق وبقية القيم الأخلاقية الفاضلة، وتترجم التصورات العقائدية إلى سلوك وإلى قيم جمالية.

الشريعة من الرحمة والسلام والاحترام والتعاون والاتحاد والسعادة والصدق وبقية القيم الأخلاقية الفاضلة، وتترجم التصورات العقائدية إلى سلوك وإلى قيم جمالية.. يبدأ الأمر بمعرفة الأمة حقوقها، ثم المطالبة بها، ثم التفاني والمثابرة في سبيل ضمانها وتحقيقها لأفرادها ودولها، ثم الدفاع عن تلك الحقوق والذود عنها، ثم الوقوف إلى جانب كل قضية عادلة في العالمين، ومؤازرة الشعوب والأمم الأخرى التي تسعى لتحصيل حقوقها الإنسانية كالحرية والنهضة والرفاهية والاستقلال.

ونخلص مما سبق إلى أن القيم الأخلاقية التي جاءت في دين الإسلام هي ركن أصيل فيه، وهو السبيل الأوحد إلى بناء الإنسان السوي، الإنسان الذي يمكنه أن يستقبل رسالة السماء وينتفع بها. والقيم الأخلاقية عندما تترسخ في مجتمع ما، وفي وجدان أفراده، ينعكس أثر ذلك حتمًا على سلوكهم وتصرفاتهم الظاهرة، وعلى قدر النبل الأخلاقي يظهر رقي المجتمع وتحضره.

والشريعة الإسلامية لم تترك أمر الأخلاق في المجتمع لاختيار الأفراد ورغباتهم، بل فرضت لذلك حدودًا ووضعت أحكامًا وقوانين، ومن وراء مخالفتها عقوبات وتعزيرات، حتى تحافظ منظومة الأخلاق من التدهور أو الانتكاس إلى الدرجة التي تهدد أمن المجتمع، وتمنع أفراده من نعمة التعايش السلمي والتعاون المشترك.

فالشريعة الإسلامية جعلت من التكافل الاجتماعي حقًّا مكتسبًا للفقير والمحتاج، ففرضت الزكاة في أموال المؤمنين بها، وعضد هذا الفرض تشريعها للصدقات والنذور والكفارات والدية والضمانات المادية، وفي

hiragate.com

المقابل -وكي تحفظ على صاحب المال حقه في الملكية- حددت عقوبة للسارق والمحارب، قاطع الطريق والباغي والقاتل والزاني؛ لأنهم يهددون الجماعة ويعتدون على أمنها واتحادها، ويعبثون بالقيم الأخلاقية جميعها، فوجب ردعهم حفاظًا على أمن المجتمع وسلامته.

ولقد تأسست دعوة النبي محمد ﷺ على بناء منظومة الأخلاق، فرتب ﷺ محبة الخالق للعبد وكذلك محبة رسوله على وفق التزام العبد بالقيم الفاضلة، وقصر ﷺ رسالته وبعثته على إتمام مكارم الأخلاق، ذلك الطريق الذي بدأه الأنبياء من قبله، وتركوا موضع لبنة كان محمد ﷺ هو تلك اللبنة التي اكتمل بها البناء، فحصل بكماله ﷺ رقي الإنسان وترقيه في الأخلاق.

قال النبي محمد ﷺ: "بعثتُ لأتمِّم حُسْنَ الأخلاق" (رواه الإمام مالك). وقال أيضًا: "إن أحبّكم إليَّ أحسنكم أخلاقًا" (رواه الطبراني).

وحينما سئل النبي محمد ﷺ عن أكثر ما يُدخِل الناس الجنة، قال: "تقوى الله وحُسْن الخُلُق" (رواه الترمذي).

وجعل من حسن الخلق عبادة يستحق صاحبها أجرًا عظيمًا كالصائم نهارًا والقائم ليلاً.

قال ﷺ: "إن المؤمن لَيُدْرِك بحُسْن خلُقه درجة الصائم القائم" (رواه أبو داود).

وتتميز منظومة الأخلاق التي وضعها الإسلام بما يلي:

١- مصدرها الوحي الإلهي: فالقرآن والسنة، فيهما المعيار والمقاصد الكلية التي تضبط حركة الإنسان في الكون وفقًا للمنظومة الأخلاقية الفاضلة.

٢- الأخلاق الإسلامية تُنال بالمجاهدة والاكتساب، والفرصة فيها متاحة أمام جميع الناس للترقي، والمنافسة بين الجميع تبدأ من نقطة واحدة يستوون فيها، حيث يُنظَر إليهم على أنهم أبناء آدم.

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفِد ما عنده فقال: "ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومَن يستعففْ يُعِفَّه الله، ومَن يستَغْن يُغْنِه الله، ومَن يتصبَّرْ يُصبِّرْه الله" (رواه البخاري).

٣- الأخلاق الإسلامية تتميز بالثبات؛ لأنها أخلاق تعبدية يلاحظ فيها المرء رضا ربه ﷻ، وهي بذلك تختلف عن الأخلاق في المنظومة الغربية التي يدور فيها الفعل الأخلاقي غالبًا مع المصالح والأهواء.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينار والدِّرْهَم والقَطِيفَة والْخَمِيصَة، إنْ أُعْطي رضي، وإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ" (رواه البخاري).

٤- الأخلاق الإسلامية تتصف بالشمولية والتكامل، فهي تشمل جميع جوانب حياة الإنسان مع ربه ومع الناس، في بيته وفي عمله وفي خلوته وفي المجتمع.

٥- الأخلاق الإسلامية مثالية وواقعية في نفس الوقت، لم تكلف المرء أبدًا ما ليس في استطاعته.

فقد قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(التغابن:١٦).

وقال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود:٨٨).

وقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٧٧).

٦- الأخلاق الإسلامية عالمية حية، تصلح لجميع البشر، ويعود نفع الالتزام بها على جميع الناس، سواء منهم المسلم وغيره، وذلك تبعًا لعالمية الدين الإسلامي الذي جاء بنظم وتشريعات وأخلاق عالمية، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(القلم:٥٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف:١٥٨)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: "المسلم مَن سلِم الناس من لسانه ويده والمؤمن من أمِنَه الناس على دمائهم وأموالهم" (رواه الحاكم).

وقال ﷺ: "أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس" (رواه الطبراني). ■

(*) مفتي الديار المصرية السابق.

hiragate.com

د. جمال بن فضل الحوشبي*

هذه الحياة فرصتك الوحيدة التي وُهِبتَها كي توقد في قلبك شمعة تضيء بها الدار الآخرة.

الموازين

عاقبة الليالي

جمعنا مجلس عابر، وتم طرح سؤال من أحدهم:

- إلى أين آلت الأمور في تركيا؟

- "لا جديد" قال الأول.

- "قاتل الله السياسة" أجاب الثاني.

- "الخيوط معقّدة ولا نعرف ماذا يجري" أضاف الثالث.

ثم ساد الصمت قبل أن تقطّعه ضحكاته التي تنمّ عن نبرة انتصار، ليقول بعدها بكل اعتزاز:

- الأمور بحمد الله إلى خير.

ثم أردف:

– لـدي معهـد شـرعي فـي إسـطنبول، وظـلّ الإيجار يؤرقني مطلـع كل عام، أربعون ألف ليرة مبلـغ كبير، كل هذا انتهى العام الماضي.

– "ما الذي حصل؟" سأله أحدهم.

– قامـت وزارة الشـؤون الدينيـة بتسـليمنا مقرًّا فخمًا وجميلاً ونظيفًا بدلاً منه في إسطنبول.

ثم أضاف:

– أحد مقرات الخدمة التابعة لفتح الله كولن.

ثم أردف.. وكأنه أحسّ بتأنيب الضمير

– لسنا وحدنا.. مئات بل ألوف المقرات والمكاتب تم توزيعها على الراغبين.

لمحتُ نظرات الاستهجان عليه من الجميع:

– "هـل أخذتهـا بـدون اسـتئذان مـن أصحابهـا؟" ردّ أحدهم في طرف المجلس.

أجاب:

– بل أخذناها من أصحابها في وقف الديانة.

قاطعه أحدهم:

– وهل وقْف الديانة هو من بنى تلك المقرات؟

أجاب موضحًا:

– بل أقصد أني لا أتحمل الذنب!

ساد الصمت من جديد..

ولأنـه أسـتاذ فـي العقيـدة بإحـدى الجامعـات، ولأن الشـمس تشـرق من المشـرق، فكذلك الحـق، وإن بُهت من يرقبونه في جهة أخرى، فقد أردت أن يكون النقاش علميًّا أكثر والحجة دامغة.. سألته:

– ما الذي تقومون به في هذا المعهد؟

أجاب:

– المعهـد مخصص لتعليم العلوم الشـرعية، ويوجد لدينا طلاب من أفريقيا وآسيا وأوروبا.

تركتُ ما بيدي على الطاولة وقلت له:

– هل صليتَ في ذلك المقر أنت وطلابك؟

تعجب من السؤال ثم ردّ:

– نعم، بلا شك، ولماذا هذا السؤال؟

– إذن أوصيك يا أخي بأن تسـتغفر الله، لأنه يُخشـى ألاّ يُكتـب لـك ثواب صلاتـك وصلاة هؤلاء المسـاكين

معك طوال العام الماضي.

ذُهـل الحضور من الكلام، وتـرك أكثرهم الجوالات من أيديهم، ثم أردفتُ:

– الغصب محرّم بكتاب الله تعالى وسـنة رسـوله ﷺ وإجماع المسلمين. وهذا الذي قلته قهر لإخوانك الذين أُجبـروا على تـرك أموالهم، وأخذها بهذه الطريقة غصب لا يجوز، سواء أكان ذلك المال عقارًا أم منقولاً، بل ذكر العلماء أنّ اغتصاب الأموال لا يحصل بالاستيلاء عليها بالقوة فحسب، بل حتى من أخذها عن طريق الخصومة الباطلة والأيمان الفاجرة يكون غاصبًا لها.

– "هناك فرق، هذا وقف" أجاب مقاطعًا.

– وهذا أشدّ حرمة.. المقر الذي تتحدث عنه مغصوب مـن أصحابـه، وإذا كان وقفًـا تضاعف الإثم، وأنت تعلم أن الدار المغصوبة قطعة من النار، لا تصحّ فيها الصلاة بإجمـاع العلمـاء، ولا بركـة في طلب علـم بداخلها، ولا يُقبـل فيهـا الدعاء والعبادة. ومن قال بصحتها فمراده بأنّ الفـرض يسـقط لـو أنه أدّاه فيهـا لكن مـع الكراهة، لكن لا ثـواب له في تلك الصـلاة، وصاحبها معرّض للعقوبة فـي الدنيـا والآخرة. وقد أجمـع المسـلمون على تحريم الغصب وإن لم يبلـغ المغصوب نصاب السـرقة، فكيف بهذه المقرات التي كلفت أصحابها ملايين الليرات؟!

بادر بالتبرير على الفور:

hiragate.com

– بل هذه أوقاف كما قلت لك، وقد عادت إلى الجهة المسؤولة عنها.. لقد دبّروا الانقلاب وهذا جزاؤهم.

ابتسمتُ لجوابه وحاولتُ امتصاص غضبه، ثم قلت:

– أنا لا أتحدث عن السياسة هنا، لندع ما جرى جانبًا، فالله يحكم بينهم. أنا أحدثك عن مسألة شرعية وأخلاقية، لا يجوز لك أن تنتفع بهذه المقرات إلا بعد استئذان أصحابها الذين أوقفوها بعد أن بذلوا في سبيلها أموالهم وجهودهم، وجمعوا لأجلها تبرعات الرجال والنساء والأطفال لسنوات طويلة، ثم خدموا من خلالها الدين والمجتمع طوال عقود.

– "لكننا نخدم بها الدين والمجتمع أيضًا" ردّ بكل ثقة.

تدخل أحدهم بحدة:

– لا تُكابر.. هذا حرام، لا يحق لك شيء من ذلك.

رفع الآخر صوته متأثرًا بما سمع:

– هؤلاء إخوانك، مسلمون مثلك، وهم بين مسجون ومطرود من بلده.. ألا تستحي من هذا الكلام؟

اشتدّ اللغط في المجلس، ورأيتُ أن أقرّب الصورة أمامه:

– إذا كان الأمر كذلك فمَثَلك كمَثَل رجل أوقف مصحفًا في مسجد ثم سافر، فدخل أحد جيران المسجد وأخذه خفية، ثم ذهب به إلى بيته وأخذ يقرأ فيه ليلاً ونهارًا، فلما جاءه إمام المسجد يطلب إعادة المصحف إلى المسجد ردّ عليه بكل ثقة "ما أراد الواقف إلا أن يقرأ فيه الناس، وأنا من الناس، وكل ما أقرأه سيكون في حسناتي وحسنات صاحب الوقف".. فما كان من الإمام إلا أن بيّن له أنّ الله طيّبٌ لا يقبل إلا طيّبًا، وأنّ فعله ذاك سرقة كتبها الله تعالى عليه، ولم يقبل منه القراءة بسبب ذلك.

ارتفع صوته:

– قلت لكم مرارًا أنا واحد من مئات، بل ألوف الأشخاص من داخل تركيا ومن خارجها، ولدينا معاهد رسمية، وقد استلمناها بطريقة رسمية من جهة رسمية.

أجبته على الفور:

– كيف تقول هذا وأنت رجل عالم وعاقل، وتعلم أنّ حُكم القاضي أو المحكمة لا يجعل الحرام حلالاً أو الحلال حرامًا. الذي يحكم بمشروعية هذا الفعل هو الله تعالى، وقد حذرنا من الاعتداء على حقوق الآخرين بقوله: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾، وقد بين لنا رسول الله ﷺ الحلال والحرام، والمشتبه بينهم، وأنّ تَرْكه استبراءٌ للدِّين والعِرض، وقال لنا في الحديث الصحيح وهو على صعيد عرفة: "إنّ دماءكم وأموالكم، وأعراضكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا"، وقال ﷺ في الحديث الصحيح الآخر: "لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه"، وحذرنا عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح كذلك من أخذ شيء من مال المسلم بدون إذنه فقال: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة"، فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: "وإن قضيبًا من أراك"، وقال ﷺ في الحديث الصحيح الآخر محذرًا من الاعتداء على حقوق الآخرين: "من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين".. ألم تسمع بكل هذا؟

رفع فنجان الشاي إلى فمه، ورشف منه رشفه، ثم سكت، وتناول الحضور بعدها موضوعًا آخر. ■

(*) المشرف العام لمركز رؤية الثقافي بـ"مكة المكرمة" / المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار النيل
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
إسماعيل قايار

الإخراج الفني
أحمد شحاتة
ياووز يالمز

منسق الاشتراكات
علاء الكوابري
+201000780841
+201023201002

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

NIGERIA
.Nusret Educational And Cultural Co. Ltd
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
nusretnigeria@gmail.com

IRAQ
Kani Irfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000

USA
Tughra Books
Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA 345
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

EUROPE
World Media Group AG
Sprendlinger Landstrabe 107-109
63069 Offenbach a. Main / Germany
Phone: 069 / 300 34 130
Fax: 069 / 300 34 105
dergiler@wmgag.eu

- **مقاربات** في تجديد رؤانا الحضارية
- **مفاتيح** لحل ألغاز القضايا المعاصرة
- **إجابات ثاقبة** على أسئلة وجودية
- **علامات** في طريق السير إلى الله

كتاب جديد

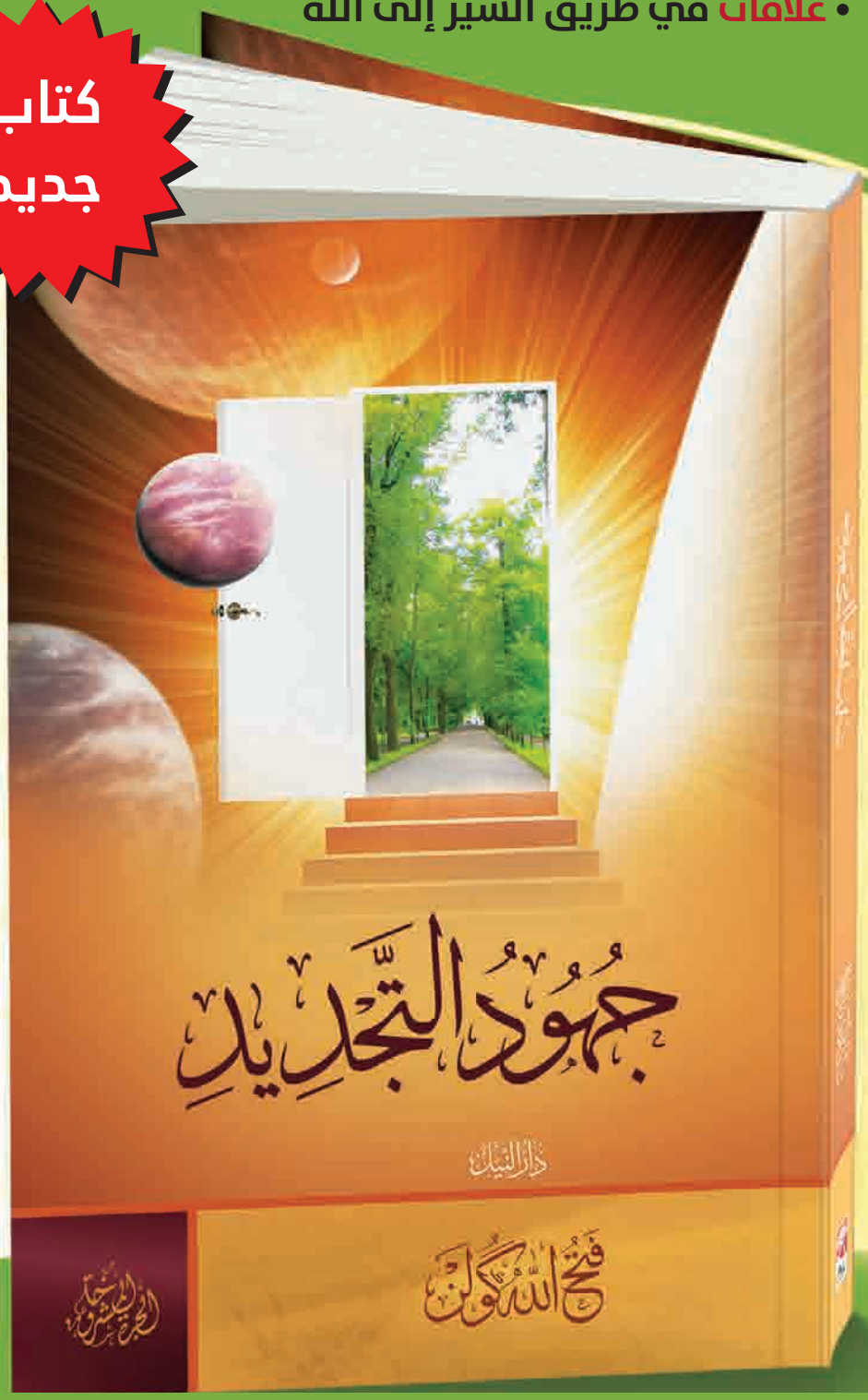

مركز التوزيع: دار النيل للنشر | sales.daralnile@gmail.com

مركز البيع الإلكتروني: www.neelwafurat.com | www.souq.com

Tel.: +202 25379391 - Mobile: +2 01023201002 +2 01023201001

دار النيل

الألوان ثراء

أنْ ترى الأشياء بلون واحد غفلة وذهول،

بل زعم باطل ووهم غير مقبول،

في كل لون ثراء وافر يبهر العقول،

كذا دعاء مَن عرف لكل جهول.

* * *

ISSN 2357-0229
62
9 772357 022004
www.hiragate.com